دكتور محمد حسن شرشر

نصوص مختارة
في الأدب العباسي

الطبعة الأولى
١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م

دار الطباعة المحمدية
بالأزهر بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على أفضل خلق الله أجمعين :

« وبعـــد »

فهذه « نصوص مختارة » من رياض الأدب العباسى :

توخيت فى اختيارها ، شرف المعنى ، ورقة اللفظ ، وجمال الصياغة .

ولكى تظهر فى ثوب قشيب ، وحلة زاهية ، فقد حرصت أن تتحلى بشرح بعض أرباب الفكر القويم ، والأدب الرفيع ، ولا سيما الخطيب التبريزى وأبو البقاء العكبرى ، وغيرهما من فرسان البيان .

والله أسأل أن ينفع بها ، وأن تؤتى ثمارها المرجوة .

وبالله التوفيق ؟

محمد حسن شرشر

العصر العباسى

يقصد بالعصر العباسى - فى تاريخ الأدب العربى تلك الفترة الطويلة من وقت تملك العباسيين زمام الخلافة ١٣٢ هـ ، إلى سقوط بغداد فى يد التتار ٦٥٦ هـ ، وهى فى الواقع فترة لم تكن الدولة فيها عباسية بمعنى الكلمة ، لأن بنى العباس منذ أن قرب المعتصم الموالى الأتراك الذين بلغ عددهم فى عهده قرابة ستين ألفا .

وبنى لهم مدينة « سر من رأى » وألقى إليهم مقاليد الأمور ، فاستبدوا بالحكم ، واستقلوا بالسلطان وانفردوا فى شئون البلاد ، وتآمروا على المتوكل فيما بعد . وجردوه من الخلافة ، ثم قتلوه .

ولا يستطيع المؤرخ لعهدهم إلا أن يقول إنه انتهى ، وإن كانت قد بقيت لهم السلطة الروحية فى شخص الخليفة .

وقد توالت فى هذه الحقبة أحداث ، وترامت خطوب ، وتتابعت قلاقل حولت مجرى التاريخ ، وغيرت من اتجاه الأيام ، وجملت من بلبلة الأفكار ، واختلاف موازين الأشياء ، ما صير لكل مدة من هذه كلها طابعها الخاص تتميز به على سواها من المدد فى نتاجها الأدبى ، وتراثها الفكرى .

وجرت عادة المؤلفين على أن يقسموا هذا العصر إلى مرحلتين : من ١٣٢ هـ حيث ابتدأت خلافتهم إلى دخول بنى بويه بغداد ٣٣٤ هـ .

ومن هذا الزمن إلى سقوط بغداد فى يد التتار ٦٥٦ هـ ويطلقون على على المرحلة الأولى : العصر العباسى الأول ، كما يطلقون على المرحلة الثانية : العصر العباسى الثانى :

الشعر العباسى

الشعر فى الأمة لسانها الناطق ، وترجمانها الصادق ، وحليتها الجميلة وإشاعته بين أفرادها ، وذيوعه فى نجادها ووهادها ، عنوان الذوق السليم والعقل الناضج ، والرأى السديد .

وكثرة قائليه : عنوان التحرر من عبودية الفكر ، وتخلف الإدراك .

والدولة العباسية ، ـ ولا سيما فى أول شأنها ـ كانت تمثل الصورة الكبيرة للدولة المزدحمة بالآمال ، المليئة بعناصر القوة ، المتوثبة إلى كثير من معانى الكرامة الإنسانية لذلك لا يكون حديث الشعر فيها إلا فيضا من القول الفواح بالطيب والعطر :

وقد حكوا أن الخلفاء كانوا يجلسون للاستماع إليه ، والاحتفاء بأصحابه ، ويميزون فيه بين جيده ورديئه ، ويلهبون الشعراء للنظم بما يعلنونه عنهم من الرضا والارتياح والتقدير والاحترام .

كما أن اتساع الملك ، وإقبال الدنيا ، ونشاط المعرفة ، ونضارة العيش وتسابق العقول ، كان الحادى لمطيته أن تسرع السير ، وتجد فى السفر ، ولا نعنى بهذا أن نقول إن بنى أمية لم يكن لهما شعر ، أو أن الجاهلية لم يكن لها منه نصيب ، ولكننا نود أن نقول : إن بنى العباس طبعوه بطابع جديد . وأضفوا عليه لباسا قشيبا ، وجعلوا له من رونق البيان ، وطلاوة التعبير ، وروعة الأداء ، ما يميزه كل التمييز فى الأغراض ، والمعانى والأخيلة ، والألفاظ والأساليب .

فإلى جانب الأغراض التى كان يرمى إليها ، من المديح والهجاء ، والوصف

والرثاء والاعتذار والاستعطاف وما شاكل ذلك ، مما تعود القائلون أن يقولوا فيه .

فقد أبدعوا إبداع الصناع ، وأجادوا إجادة الماهر ، وأحسنوا إحسان الذى يملك تصريف نواحى القول : كقول أبى تمام فى وصف الربيع .

يا صاحبى تقصيا نظريكما
تريا وجوه الأرض كيف تصور
تريا نهارا مشمسا قد شابه
زهر الربا فكأنما هو مقمر

وكقول المتنبى فى الحكمة .

والظلم من شيم النفوس فإن تجد
ذا عفة فلعلة لا يظلم
ومن البلية من لا يرعوى
عن جهله وخطاب من لا يفهم
ومن العداوة ما ينالك نفعه
ومن الصداقة ما يضر ويؤلم

وكقول الحريرى فى الإخوانيات :

سامح أخاك إذا خلط
منه الإصابة بالغلط
وتجاف عن تعنيفه
إن زاغ يوما أو قسط

وكقول المعرى فى الفلسفة :

غير مجد فى ملتى واعتقادى
نوح باك ولا ترنم شاد
وشبيه صوت النعى إذا قيـ
ـس بصوت البشير فى كل ناد
أبكت تلكم الحمامة أم غنـ
ـت على فرع غصنها المياد
صاح هذى قبورنا تملأ الرحـ
ـب فأين القبور من عهد عاد
خفف الوطء ما أظن أديم الـ
أرض إلا من هذه الأجساد

إلى غير ذلك من الأغراض كالتهنئة بالأعياد والمناسبات ، ووصف الأشياء النفسية كالقصور ، ومجالس اللهو ، والوعظ والزهد في الدنيا ، ونظم العلوم وضبط القواعد :

أما المعاني والأخيلة :

فقد كان للإنتقال الذي صارت إليه الدولة أثر قوى في ترتيب المعاني . وأخذ بعضها بحجز بعض ، فقد ظهر مايسمى في الاصطلاح الحديث بوحده القصيدة . . وتنوعت تلك المعاني بتنوع الفنون ، واتســـاع مدى التصوير للأشياء لامتلاء الأذهان بتلك الثروة الضخمة من الجمال الرائع والسحر الأخاذ والفتنة الواضحة ، والذوق الراقى ، التى أكسبتهم إياها طبيعة الحياة الطليقة ، والعيش المرح ، والترف الواسع .

وكما تكون المعانى الأدبية ، والأخيلة العقلية ، صوره انعكاس البيئة التى عاش فيها الكاتب أو الشاعر ، فإن الألفاظ والأساليب تتأثر إلى حد بعيد بما يحيط بالإنسان من أشياء . ومايتعلق بنفسه من مظاهر ، ويلازم أحاسيسه من صور .

وقد كان لترف العيش ، ومجالس النقد ، ونمو الإدراك ، وتهذيب الطباع ، ودقة الفهم للمعاني ووضوح التمييز بين الحسن والقبح أثر فى العناية باختيار الألفاظ إختيارا جعلها تخضع لموسيقى الغناء من سلاسة فى النطق وخفة على السمع ، ووضوح فى الأداء :

أما الأساليب فقد رقت وسهلت مع سبك وجودة وقوة ، وترك اما عرف عنها قديما من الابتداء بالغزل والوقوف على الديار ، والبكاء على الأطلال إلى ذكر القصور ، ووصف الرياض والحقول ، مع ولوع إلى حد ما بالمحسنات البديعية والتشبيهات اللطيفة ، ثم كان لهم من براعة المطلع

والمقطع وحسن الانتهاء ما يدل على مهارة التناول ، ولباقة التخلص ، وجمال الابتداء ، وفهمهم لقانون البلاغة العربية ، ولكل مقام مقال ، جعلهم يتخيرون للأغراض ألفاظها المناسبة ، وأساليبها الملائمة، فلا يحملون للغزل ألفاظ الحماسة ، ولا للمديح ألفاظ الاعتذار ، ولايضعون أسلوب التهديد فى موضع الصفح(١) .

وإليك بعض الثمار اليانعة التى قطفناها من رياض الشعر العباسى :

---

(١) أنظر دراسات فى الأدب ، والبلاغة د/ ابراهيم أبو الخشب ٦٨ - ٨٧ .

أبو تمـام

التعريف بالشاعر :

هو حبيب بن أوس الطائى ، أسبق ثلاثة الشعراء الذين سارت بذكرهم الركبان ، وخلد شعرهم الزمان ، ثانيهم البحترى ، وثالثهم المتنبى .

ولد أبو تمام ١٩٠هـ بقرية جاسم على مقربة من دمشق من أبوين فقيرين ، وهاجر صغيرا إلى مصر ، فلبث فيها من عمره سنين : ثم كان يسقى الماء بالجرة فى جامع عمرو بن العاص بالفسطاط .

وكان طوال بقائه بالمسجد يجلس بين أئمة اللغة والفقه والحديث ، مما حبب إليه العلم والأدب ، فتعلم العربية ، وحفظ مالا يحصى من شعر العرب حتى قيل إنه كان يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة للعرب غير المقطعات والقصائد .

ولما أينعت ثمار أدبه ، وقوى شعره ، عرف أن مصر لا تنهض بإذاعة فضله وتحقيق أمله ، فعاد إلى الشام ، ولبث فيها مدة يمدح رؤساءها وولاة الدولة ، فذاع شعره بالجزيرة والعراق ، ودعاه رؤساء الدولة أن يقدم إلى العراق ، فقدمها ومدحهم واتصل بالخليفة المعتصم فمدحه وحظى عنده ، وعند وزيره محمد بن عبدالملك الزيات ومحمد بن حميدالطوس الطائى أحد قواد العرب فى جيش المعتصم .

واتصل أبو تمام بكثير من ولاة العباسيين كعبدالله بن طاهر بخراسان وغيره ، ومدحهم بالقصائد الخالدة ، فقربوه منهم إلى حد الصداقة والإخاء ، ورغبوا به عن التكسب بالشعر فولاه الحسن بن وهب صاحب ديوان

الرسائل فى زمن المعتصم ولاية بريد الموصل فأقام بها أقل من سنتين وتوفى بها ٢٣١ هـ . ودفن بها .

وكان أبو تمام أسمر اللون طويلا ، فصيح الكلام ، فيه تمتمة يسيرة ، وكان حاضر الذهن سريع الجواب . قلما عرف من أهل زمانه مثله فى حدة الخاطر ، ولطافة الحس ، فقد حكى أنه لما مدح الأمير أحمد بن المعتصم بقصيدته السينية ، وانتهى فيها إلى قوله فى المدح :

أقــدام عمرو فى سماحة حاتم
فى حلم أحنف فى ذكاء إياس

قال له فيلسوف العرب أبو يوسف يعقوب الكندى وكان حاضرا : الأمير فوق ما وصفت فأطرق مليا وقال :

لا تنكروا ضربى له من دونه
مثلا شرودا فى النـدى والباس

فالله قد ضرب الأقل لنوره مثلا من المشكاة والنبراس

ولما أخذت القصيدة من يده ، لم يجدوا فيها هذين البيتين فعجبوا من سرعة خاطره وحده فطنته .

ولما قصد الأمير عبد الله بن طاهر ، صاحب خراسان ، وامتدحه بالقصيدة التى مطلعها :

أهن عوادى يوسف وصواحبه
فعزما فقدما أدرك السؤال طالبه

أنكر عليه « أبو العميثل » أحد شعراء عبد الله بن طاهر ، وكان يقرأ شعر الشعراء المادحين قبل أن ينشدوه أمام عبد الله :

وقال لأبى تمام :

لم لا تقول ما يفهم ؟

فقال أبو تمام : ولم لا تفهم ما يقال ؟

فاستحسن منه هذا الجواب السريع :

ويريد أبو تمام بمطلع قصيدته السابق : أن النساء كدن يحلن بينه وبين الرحلة إلى ممدوحه ، فيصير فنه عن الخير المأمول ، كما كدن يصرفن يوسف عن هداه ، لولا خوفه من الله . لكن الشاعر قال فى نفسه لا ، ان أنصرف عن غايتى ، ولابد من السفر إلى عبد الله :

خصائص شاعريته ، ومنزلته فى الشعر :

ظهر أبو تمام والدنيا قد ملئت بترجمة علوم الأوائل وحكمتها من من اليونان والفرس والهند ، فخصب عقله ، ولطف خياله بالاطلاع عليها ، واستخرج من جملة ذلك طريقته التى آثر بها تجويد المعنى على تسهيل العبارة ، فكان أول من أكثر من الحكم والأمثال والاستدلال بالأدلة العقلية ، والكنايات الخفية ، ولو أفضى ذلك إلى التعقيد أحيانا :

هذا وقد نحا أبو تمام منحى بشار وأبى نواس ومسلم بن الوليد فى الجناس والمطابقة والاستعارة ، وغيرها من أنواع البديع ، فسلم له بعضها ، واعتل البعض الآخر ، ومع هذا ، فقد سلم له من كلامه جملة لم يحم حولها شاعر سابق .

وعجز عن محاكاتها كل لاحق ، لما حوته من عيون المعانى المبتكرة ، وصيغت فيه من الألفاظ الرائقة ، وضمنته من الأمثال والحكم التى زادت

فى ثروة الأدب العربى ، ومهدت لمن خلفه طرقا لم تكن لولاه معبدة ، ومنها سلك أبو الطيب المتنبى ، وأبو العلاء المعرى ، وغيرهما إلى حكمهم(١) .

ولغلبة الحكمة عليه قيل إن أبا تمام والمتنبى حكيمان والشاعر البحترى :

وقد أجاد أبو تمام القول فى كل فن من فنون الشعر ، ومن ذلك :

قوله : فى رثاء محمد بن حميد الطوسى :

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر
فليس لعين لم يفض ماؤها عذر

توفيت الآمال بعد محمد
وأصبح فى شغل عن السفر السفر

وقوله : فى المدح :

يا أيها الملك النائى بغرته وجوده لمرجى جوده كثب
ليس الحجاب بمقص عنك لى أملا
إن السماء ترجى حين تحتجب

ومن أبياته السائرة قوله :

فلو صورت نفسك لم تزدها على ما فيك من كرم الطباع

وقوله فى الحكمة :

ينال الفتى من عيشه وهو جاهل ويكدى الفتى فى دهره وهو عالم
ولو كانت الأرزاق تجرى على الحجا
هلكن إذا من جهلهن البهائم

---

(١) أنظر الأدب العربى وتاريخه ١٠ — ١٣ .

مناسبة النص :

فى ٢٢٣ هـ اعتدت دولة الروم على إحدى المدن العربية المجاورة لها وأسر من العرب بعض الرجال والنساء ، ولطم أحد جنود الروم امرأة عربية فصاحت « وامعتصماه » ! ! وعلم المعتصم بما حدث فأعد جيشه ، واستشار المنجمين فى الوقت المناسب لفتح عمورية حصن الروم ، ومسقط رأس الامبراطور فزعموا أنها ان تفتح فى ذلك الوقت ، واستمهلوه إلى شهر صفر ؛ ولكن المعتصم لم يبال بكلام المنجمين ، ولم يكترث به ، ومضى بجيوشه إلى بلاد الروم ، فسقطت أنقرة فى يده وزحفت قواته على عموريه تدك قلاعها ، وتسحق جيوش الروم ، ثم تركتها طعاما للنيران ، وفر الامبراطور .

وقد شاهد أبو تمام أحداث المعركة فصورها كما أحسها فى هذه القصيدة الرائعة التى إليك طرفا منها :

الإشادة بالقوة ، والسخرية من المنجمين

١ — السيف أصدق أنباء من الكتب
في حده الحد بين الجد واللعب

٢ — بيض الصفائح لا سود الصحائف في
متونهن جلاء الشك والريب

---

(١) أنباء : أخبارا ، في حده الحد : الحد الأول للسيف ، والحد الثاني : الفاصل بين الشيئين ، والجد ضد اللعب .

وكان المنجمون قد حكموا أن المعتصم لا يفتح عمورية ، وراسله الروم بأنا نجد في كتبنا أنه لا تفتح مدينتنا إلا في وقت إدراك التين والعنب ، وبيننا وبين ذلك الوقت شهور يمنعك من المقام بها البرد والثلج ، فأبى أن ينصرف ، وأكب عليها ففتحها فأبطل ما قالوا .

والمعنى : إن السيف إذا استعمل ، فقد يرىء الأمر من الهزل ، وأن حده القاطع هو الفاصل بين واقع الحقيقة ، وكذب الخرافة .

(٢) الصحيفة : الكتاب ، اسم شائع ، فيقال للكتاب الذي يكتب فيه الحاجة صحيفة وللدفتر صحيفة ، وجمع الصحيفة : صحائف .

والصفائح : جمع صفيحه وهي الحديدة العريضة ، ويقال للسيف العريض كذلك ، والمتون : جمع متن : الظهر ، والمراد بمتونهن : جوانبهن ، والجلاء : كشف الأمر ورفع الغطاء عنه حتى يظهر الكامن المستتر فيه ، والشك والريب بمعنى واحد ، فكرر لاختلاف اللفظين . والضمير في « متونهن » يعود على الصفائح .

والمعنى : السيوف غير الكتب ، فالسيوف البيضاء تفصل بين الحق والباطل ، وتزيل الشكوك والأوهام ، أما صحائف المنجمين السوداء فاهي إلا كذب وضلال .

٣ — والعلم فى شهب الأرماح لامعة
بين الخميسين لا فى السبعة الشهب

٤ — أين الرواية ، أم أين النجوم وما
صاغوه من زخرف فيها ومن كذب

---

(٣) العلم : إدراك الشيء بحقيقته ، واليقين ، الشهاب : الشعلة الساطعة من النار ، والمراد بشهب الأرماح : أسنة الرماح . و « الخميسان » الجيشان ، وسمى الجيش خميسا لأنه ينقسم إلى خمسة أقسام هى : المقدمة ، والمؤخرة ، والميمنة والميسرة والقلب . وقيل : إن الجيش سمى خميسا فى زمان كانت الملوك إذا غزت أخذت خمس الغنيمة لأنفسها ، فالخميس إذاً فى معنى ، المخموس ، من قولهم : خمست القوم إذا أخذت خمس أموالهم ، والسبعة الشهب هى الكواكب السيارة السبعة ، وكانت عند العرب : عطارد ، والزهرة ، والشمس ، والقمر والمريخ ، والمشترى ، ولامعة : نصب على الحال من شهب الأرماح .

والمعنى : العلم بأخبار الحروب ، ونتائجها يعرف من الأسلحة الفتاكة ، وأدوات القتال القوية التى يتسلح بها المحاربون ، ويدربون عليها ، وليس من الشهب السبعة التى يعول عليها المنجمون الواهمون .

(٤) الرواية : ماروى عن المنجمين ، صاغوه : قالوه ، وأصل الزخرف : ما يعجبك من متاع الدنيا ، وربما خص به الذهب ، ويقال للقول الحسن المكذوب زخرف ، لأنه حسن ليغر .

والمعنى : يسأل الشاعر — فى تهكم واستهزاء — أين ما زعمه المنجمون وما ادعاه الكذابون ، بل أين الكواكب التى حاكوا من حولها الأباطيل .

٥ ــ تخرصــا وأحاديثا ملفقــة
ليست بنبع إذا عدت ولا غرب

٦ ــ عجــائبا زعموا الأيام مجفلة
عنهن في صفر الأصفار أو رجب

---

(٥) خرص خرصا : كذب ، وفي التنزيل العزيز « قتل الخراصون » ، وتخرص : تكذب بالباطل . والتخرص : التكذب بالباطل وافتراء القول ملفقة : أي ضم بعضها إلى بعض وليست في شكل واحد .

والنبع : شجر صلب ينبت في رؤوس الجبال ، وتتخذ منه القسي ، وإذا وصف الرجل بالجلادة والصبر شبه بالنبع ،أي أنه صلب لا يقدر على كسره. ومن أمثالهم « النبع يقرع بعضه بعضاً » يضرب مثلا للقوم الأشداء يبلون بمثلهم في الشدة ، والغرب : شجر ينبت على الأنهار ليست له قوة .

والمعنى : هذه الأحاديث لا قيمة لها ، ولا يعبأ بها ، لأنها لا تصمد في ميدان الحرب وعند النزال مع العدو .

(٦) زعم : زعما : ظن ، وأكثر ما يستعمل الزعم فيما كان باطلا ، أو فيه ارتياب مجفلة : مسرعة ومنصرفة، ويروى مجفلة ، ومجالية، والأصلان مختلفان ولكن المعنيين يتقاربان : تقول أجفلت الحمر والنعام إذا أحست بأمر يذعرها فهربت منه بعجلة ورعب ، ويقال أجلى القوم عن القتيل إذا انكشفوا عنه ، والنعام إذا أجفل فقد انكشف الموضع الذي كان فيه . وصفر : الشهر الثاني من السنة القمرية ، وصفر الأصفار : عظم شأنه لأنه ينتظر فيه أمر شاق ، كما يقال : فلان فارس الفرسان ، أي أشدهم بأسا ، وعلى هذا قولهم : ، وهند الهنود .

والمعنى : أنهم زعموا أن أمورا عجيبة ستظهر سريعة في صفر أو رجب.

٧ — وخوفوا الناس من دهياء مظلمة
إذا بدا الكوكب الغربي ذو الذنب

٨ — يقضون بالأمر عنها وهي غافلة
مادار في فلك منهـــا وفي قطب

---

(٧) دهياء: أي داهية دهياء، ودهواء، أي شديدة جدا والداهية: الأمر المنكر العظيم، والجمع دواه، ودواهي الدهر: ما يصيب الناس من عظم نوائبه، ويقال: رجل داهية: أي بصير بالأمور.

والمراد هنا: الكارثة الفادحة.

وكانوا قد حكموا أن طلوع ذلك الكوكب الموصوف يكون فتنة عظيمة وتغير أمر في الولايات، فأنكر الطائي ذلك من أحكامهم.

والمعنى: أنهم ادعوا أن كارثة فادحة ستقع إذا ظهر الكوكب المذنب في الأفق الغربي، فأذاعوا بذلك الذعر والخوف والاضطراب في قلوب الناس.

(٨) كل مستدير فلك، حتى يقال للقطعة المستديرة من الأرض فلك أيضاً. والفلك مدار النجوم الذي يضمها، والقطب كل ما ثبت فدار عليه شيء وفي السماء قطب الجنوب وقطب الشمال.

والمعنى: يحكمون عليها بأحكام مختلفة، وهي لا تعرف شيئاً من ذلك وما يحكمون به لم يدركم في فلك منها ولا قطب، أي لا تعي عما يقولون شيئاً سواء منها مادار حول نفسه، ومادار حول غيره.

هذا ـ وفي قوله « السيف أصدق أنباء من الكتب » استعارة مكنية حيث شبه الشاعر السيف بإنسان يتحدث بصادق الأخبار، وحذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو « أصدق »

وفي قوله: « حده » و« الحد » جناس، كذلك بين « الجد والجد » كما يوجد « طباق » بين « الجد واللعب ».

. . . .

= وفى قوله : « الصفائح ، والصحائف » جناس أيضاً ، وكذلك بين « الحد والجد » كما يوجد « طباق » بين « الجد واللعب » .

وفى قوله : « الصفائح ، والصحائف » جناس أيضا ، وفى « سود وبيض » طباق حسن .

ومعلوم أن الجناس يكسب الأسلوب انسجاما صوتيا ، ونغما موسيقيا مما يؤدى إلى جمال الأسلوب وقوة التأثير .

كما أن الطباق فيه جمع بين الشيء وضده ، فيظهر الفرق بينهما فى وضوح تام ، وكما قيل « وبضدها تتميز الأشياء » فبالطباق تؤكد الفكرة ، وترسخ فى النفس .

وفى قوله « والعلم فى شهب الأرماح لامعه لا فى السبعة الشهب » قصر أداته العطف بلا ، والعلم مقصور على شهب الأرماح وليس فى السبعة الشهب والسر البلاغى أنه يفيد التوكيد والتخصيص .

والاستفهام فى قوله « أين الرواية ، أين النجوم » إنكارى بمعنى النفى

وفى قوله « من زخرف » استعارة تصريحية أصلية حيث شبه الكلام المنمق بالزخرف ، ثم حذف المشبه وأقام المشبه به مقامه .

وفى قوله « نبع وغرب » طباق حسن ، وأيضاً فى قوله « أحاديثاً ملفقة » استعارة مكنية حيث شبه الأحاديث التى تجمع بين ألوان الباطل بالثياب الملفقة التى تجمع بين قطع متنافرة من الثياب ، ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو « ملفقة » .

وفى قوله : « ليست بنبع ، ولا غرب » تشبيه والتقدير ليست أحاديثهم قوية كالنبع ، ولا رخوة كالغرب .

الإشادة بفتح عمورية

٩ — فتح الفتوح تعـــالى أن يحيط به
نظم من الشعر أو نثر من الخطب

١٠ — فتح تفتح أبـــواب السماء له
وتبرز الأرض فى أثـــوابها القشب

— وفى قوله «الأيام بجفلة» استعارة مكنية حيث شبه الأيام بداية مسرعة ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشىء من لوازمه وهو «جفلة» كما أن قوله «زعموا» توحى بكذبهم، و «صفر الأصفار» بالتعظيم والتكريم.

وفى قوله «رهياء مظلمة» كناية عن الشديد والخطب الجسيم:

وفى قوله «وهى غافلة» استعارة مكنية حيث شبه النجوم بإنسان ثم ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشىء من لوازمه وهو «الغفلة».

(٩) تعالى: عظم — قال ابن المستوفى: وموضع «تعالى» حال، وأنا أكره روايه «تعالى» وما بعدها لأن مثله يقع فى الثناء على الله عز وجل.

أن يحيط به: أى من أن يحيط به.

والمعنى: إن فتح عمورية فتح عظيم الشأن يعجز الشعر والنثر عن وصفه.

(١٠) «تفتح أبواب السماء له» أى بالغيث والرحمة، وقيل لأنه من معالم الإسلام وليس كل الفتوح كذلك، و «تبرز الأرض» أى تخرج الأرض،

١١ — يا يوم وقعة عمورية انصرفت
منك المنى حفلا معسولة الحلب

—والمعنى : هذا الفتح العظيم تفتحت له أبواب السماء تعظيما وتكريما، وارتدت الأرض ثيابها الجديده ابتهاجا له وتشريفا .

(١١) أصل النداء أن يكون لمن تخاطبه ، ويراجع القول ، ثم اتسعوا فيه حتى خاطبوا الديار وغيرها من الجوامد ، فكأنه خاطب يوم وقعة عمورية لجلالة عنده .

و « عمورية » اسم أعجمى ، واستعمله فى هذا البيت بتشديد الميم والياء وقد روى عنه فى قصيدة أخرى بتخفيف الحرفين ، والشعراء يجترئون على تغيير الأسماء الأعجمية أكثر من اجترائهم على تغيير الأسماء العربيه ، فقد ذكر محمد بن عبد الملك الزيات عمورية مخففة الياء فى قوله :

أقام الإمام منار الهدى وأخرس ناقوس عموريه
قد أصبح الدين مستوسقا وأضحت زناد الهدى موريه

و « حفل » جمع حافل ، وهى التى حفل ضرعها باللبن ، يقال ناقة حامل، وشاة حافل ، والمراد : النوق التى امتلأت ضروعها باللبن .

ومعسوله : حلوة : والمعسولة : التى فيها العسل ، يقال عسلت الطعام فهو معسول ، وعسلته فهو معسل — .

—الحلب : « ما حلب من اللبن » ، والمعنى : جمع الأمنيه .

والمعنى : وبعد هذا الفتح المبين ، والانتصار العظيم ، تحققت آمال المسلمين ، وترك فى النفوس آثارا حسنة وذكريات طيبة ، وأمانى سعيدة .

١٢ — أبقيت جد بنى الإسلام فى صعد
والمشركين ودار الشرك فى صبب

١٣ — أم لهم لو رجوا أن تفتدى جعلوا
فداءها كل أم منهم وأب

١٤ — وبرزة الوجه قد أعيت رياضتها
كسرى وصدت صدودا عن أبى كرب

---

(١٢) « الجد » هنا : الحظ ، وبنو الاسلام الذين يدخلون فيه ، وينسبون إليه ، ومن كلامهم إذا أكثر الرجل من الشىء وألفه ، أن يقولوا هو أبو كذا ، وأمه ، وابنه ، كما يقال هو أبو الأضياف ، وأم العيال وابن الهيجاء . و « الصعد » المكان الذى يصعد فيه ، و « الصبب » المكان : الذى ينصب فيه أى ينحدر ، ويقال لهما الصعود والصبوب :

والمعنى : إن هذا اليوم العظيم رفع شأن المسلمين ، وأعلى قدرهم على حين أذل المشركين ، ولوى أعناقهم .

(١٣) الأم : أصل الشىء وعمدته .

والمعنى : هذه البلدة أمهم تجمعهم وتضمهم ، كما تضم الأم ولدها ، فلو استطاعوا لا فتدوا خرابها بكل أم لهم ولدتهم وأب .

(١٤) يقال امرأة برزة إذا كانت تخاطب الرجال ، ولا تستتر منهم .

واشتقاقه من برزت أى ظهرت ، يقال : لقيت فلانا برزين أى برز كل واحد منا لصاحبه .

و « رياضتها » تذليلها والمراد فتحها ، و « صدت » استعصت عليه ، وأبو كرب : أحد تتابعة اليمن أى ملوك اليمن وتبع لقب أعاظم الملوك .

١٥ — بِكر فما افترعتها كف حادثة
ولا ترقت إليها همة النوب

١٦ — من عهد اسكندر أو قبل ذلك قد
شابت نواصي الليالي وهي لم تشب

= والمعنى : هي مع بروزها للنظر قد أعيت كسرى إذ كان لا يقدر عليها .

ومن ذهب إلى أن البرزة « الحيية » فهو يحتمل هذا المعنى . أي أن هذه البلده كانت كالمرأة المستتره لا ينظر إليها أحد .

(١٥) بكر : العذراء ، وأول كل شيء ، وكل فعله لم يتقدمها مثلها افترعها : افتضها ، وأزال بكارتها ، والنوب جمع « النوبه » النازلة والمصيبة .

والمعنى : ان هذه لمناعتها وحصانتها قــد احتفظت بعزتها وكرامتها وشموخها فلم يمتد إليها يد سالبه ، ولم ينكس لها علم .

(١٦) اسكندر : الاسكندر المقدونى الذى أنشأ الاسكندريه قبل الميلاد ، وصرح به ليدل على ثباتها وقدمها .

والمتعارف بين الناس « الاسكندر » بالألف واللام فحذفهما منه ، وقد فعل ذلك في غير موضع كقوله « ما بين اندلس » إلى صنعاء » .

ولم تجر العادة أن تستعمل « الأندلس » إلا بالألف واللام .

والمعنى : إن هذه المدينة منذ عهد الاسكندر ، وهي قوية منيعة ، لم تكسر لها شوكة ، ولم تضعف أمام غاز ، وقد شابت الليالي دون أن تفقد عزها ومجدها .

١٧ - أتتهم الكربة السوداء سادرة
منها وكان اسمها فراجة الكرب

١٨ - جرى لها الفأل برحا يوم أنقرة
إذ غودرت وحشة الساحات والرحب

---

(١٧) الكربة : الكارثة ، ومن كلامهم أن يصفوا الخطب الشديد بالسواد تشبيها بالليل المظلم ، ومن ذلك الحديث المشهور « أتتكم الفتن كأنها قطع الليل المظلم » وسادرة : من سدر العين : يقال : سدرت عينه إذا أظلمت ، وهنا بمعنى متحيرة .

والمعنى : لقد حلت بهذه المدينة الكائنة الفدحة بعد أن كانت حصنا منيعا ، وموردا للخير والعطاء .

(١٨) الفأل : قد استعمله مذكرا ، وقد ادعى بعض الناس أنه مؤنث ، والتذكير أشهر ، وأكثر ما يجيء الفأل في معنى الخير ، كأنه عندهم ضد الطيرة ، ويجوز أن يقع الفأل على ما كان من خير وشر ، وهو هنا في معنى الشر ، وبرحا : مصدر برح يبرح من البارح ، وهو ضد السانح ، والعرب تختلف فيهما : فيقولون : السانح ما ولاك مياسره ، والبارح ما ولاك ميامنه ، وبعضهم يعكس ذلك ، ومنهم من يتيمن بالبارح ، ويتشاءم بالسانح ، ومنهم من يأخذ بضد ذلك - وأنقرة : موضع في بلاد الروم وبه قبر امرىء القيس ، يروى بضم القاف وكسرها وفتحها ، ووحشة الساحات : أي موحشة الساحات والرحب جمع رحبة ، ورحبه بسكون الحاء وفتحها ، وغودرت : تركت .

والمعنى : لقد كان فتح المسلمين أنقرة نذيرا بفتح عمورية ودك حصونها وهزيمة جيشها .

١٩ - لما رأت أختها بالأمس قد خربت
كان الخراب لهـــا أعدى من الجرب

٢٠ - لقد تركت أمـــير المؤمنين بها
للنار يوما ذليـــل الصخر والخشب

٢١ - غادرت فيهـا بهيم الليل وهو ضحى
يشله وسطها صبـــح من اللهب

---

(١٩) أختها : أى فى الهم والخراب ، والمراد بأختها أنقره ، والضمير فى أختها يعود على عمورية . والجرب : مرض يوصف بسرعة العدوى .

والمعنى : إن عمورية قد لبست ثوب الخراب بسبب عدوى انتقلت إليها من أختها أنقره التى سبقتها فى الوحشة والدمار ، وكأنها بذلك تشارك فى المصاب ، وتقاسم فى العذاب .

(٢٠) نصب يوما على أنه مفعول به ، الصخر : الحجارة .

والمعنى : ياأمير المؤمنين لقد تركت عمورية طعاما للنيران التى أكلت الأخضر واليابس ، والتهمت الصخر والخشب وقضت عـــلى الحصون والقلاع .

(٢١) غادرت : تركت ، وبهيم الليل : الليل الأسود المظلم ، يشله : يطرده اللهب لسان النار .

والمعنى : لقد تحول الليل المظلم ضحا ساطع الضوء ، وكأن لهيب النار صبحا يطرد ظلمات الليل الحالك .

٢٢ — حتى كأن جلابيب الدجى رغبت
عن لونها وكأن الشمس لم تغب

٢٣ — ضوء من النار والظلماء عاكفة
وظلمة من دخان فى ضحى شحب

٢٤ — فالشمس طالعة من ذا وقد أفلت
والشمس واجبة من ذا ولم تجب

---

(٢٢) جلابيب : جمع جلباب ، وهو القميص أو الرداء ، والدجى جمع: دجية ، والدجية : الظلمة ، وقال قوم : لا يقال دجية إلا لليل مع غيم ، فأما المحدثون فيعبرون بالدجى عن الليل ، ولا يفرقون بين المقمر وغيره .

وأصل الدجية أن يكون بالواو ، لأنه من دجا يدجو ، ولكنهم آثروا الياء لخفتها : وبعض المولدين يظن « الدجى » واحد مثل « هدى» وإنما هو مثل زبيه وزبى .

ورغبت عن لونها : كرهت لونها .

والمعنى : وكأن ثياب الليل كرهت لونها الأسود ، أو كأن الشمس لم تزل مضيئة تنير سماء المدينة ، وتسطع بين أجوائها .

(٢٣) الواو فى قوله : « والظلماء عاكفة » واو الحال ، وعاكفة : عكف فى المكان عكفا وعكوفا أقام فيه ولزمه ، وفى التنزيل « والهدى معكوفا أن يبلغ محله » .

شحب : متغير ، والمعنى : إن من ينظر إلى عمورية يجد ضوءا من النار المشتعلة يخالط الظلماء المقيمة كما يجد ظلاما خارجا من دخان النيران يخالط النهار المشمس فيحيله إلى شبه ظلام .

(٢٤) « من ذا » الأول يعنى به لهيب النار ، و « ومن ذا » الثانى يريد به الدخان ، أفلت : غابت ، ووجبت الشمس : إذا سقطت فى المغرب.

٢٥ — تدبير معتصم بالله منتقم لله مرتقب في الله مرتغب

= والمعنى : إن من ينظر إلى هذا الضوء يخيل إليه أن الشمس لا تزال طالعة مع أنها قد غربت ، كما يخيل إليه حين يرى الظلام المنبعث من الدخان أن الشمس قد غربت مع أنها طالعة .

(٢٥) المرتقب : الذي يجعل ما يرقبه بين عينية كأنه ينظر إليه ، ومرتغب : أي يرغب فيما يقربه إلى الله تعالى .

والمعنى : إن هذا الانتصار العظيم هو الثمرة الطيبة لمن اعتصم بالله ، واعتمد على الله ، وانتقم من أعداء الله ورغب في نصرة الله .

هذا وفي النص الكثير من القيم الجمالية ، والصور البلاغية الرائعة .

فالتعبير بفتح الفتوح — في البيت التاسع — يدل على عظمة النصر حيث أضاف كلمة فتح إلى الفتوح . وفي قوله : نظم ونثر طباق حسن .

وقوله — في البيت العاشر — فتح تفتح أبواب السماء له : كناية عن السرور والرضا وفي قوله — تبرز الأرض في أثوابها القشب — استعارة مكنية حيث صور الأرض عروسا ترتدي ثيابا جديدة ، وحذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو « في أثوابها القشب » .

وفي قوله — في البيت الحادي عشر — انصرفت عنك المنى حفلا معسولة الحلب — استعارة مكنية حيث شبه المنى بالنوق التي امتلأت باللبن الحلو ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه .

وفي قوله — في البيت الثاني عشر — أبقيت : مجاز عقلي علاقته السببية وبين قوله : « صعد » و « صبب » طباق .

وفي قوله — في البيت الثالث عشر — أم لهم : تشبيه بليغ حذف منه الوجه والأداة والتقدير : هي أم ؛ وفي قوله — جعلوا فداءها كل أم ، وأب كناية عن حبهم لها وحفاظهم عليها . =

. . . .

= وفى البيت الرابع عشر - فى قوله «وبرزة الوجه» استعارة أصلية حيث شبهها بالغادة السافرة الوجه .

والبيت الخامس عشر : بكر فما افترعتها كف حادثة ... الخ ، كناية عن حصانتها ومنعتها ، وعجز الغزاة عن اقتحامها وفتحها .

وفى البيت السادس عشر - فى قوله « شابت نواصى الليالى » استعارة مكنية وبين قوله « شابت ولم تشب طباق سلب » .

وفى البيت السابع عشر : استعارة مكنية فى قوله « أتتهم الكربة » .

وفى البيت الثامن عشر : فى قوله «غودرت وحشة الساحات والرحب» كناية عن الخراب الذى أصاب أنقره .

وفى البيت التاسع عشر فى - قوله «كان الخراب لها أعدى من الجرب» كناية عن سرعة الخراب الذى حل بها .

وفى البيت العشرين : استعارة مكنية فى قوله «ذليل الصخر والخشب» حيث شبه الصخر والخشب بإنسان ذليل .

وفى البيت الواحد والعشرين : تشبيه بليغ فى قوله « وهو ضحا » وقوله صبح من اللهب .

وفى البيت الثانى والعشرين : تشبيه بليغ فى قوله « جلابيب الدجى » فقد شبه الدجى بالجلابيب .

وفى البيت الثالث والعشرين كناية عن شدة النار وقوة اشتعالها ولهيبها وفى البيت الرابع والعشرين طباق حسن .

وفى البيت الخامس والعشرين نوع من السجع يسمى التشطير وهو =

. . . .

= أن يجعل كل من شطرى البيت سجعة مخالفة لأختها بمعنى أن يكون كل شطر فقرتين تخالف الأوليان منهما الأخريين فى التقفية .

وفى البيت ركب الشطر الأول من فقرتين متفقتين فى الميم ، والشطر الثانى من فقرتين متفقتين فى الباء .

والقصيدة تمثل شعر الحماسة ، وقد رأيت أن أفكارها تدور حول تمجيد السيف وبيان أثر القوة فى المعركة ، إلى جانب السخرية من المنجمين، والإشادة بفتح عمورية ووصف ما صاحب هذا الفتح من أحداث جسام ، وما حل بها من خراب ودمار .

كما يبدو فى القصيدة شغف الشاعر بالمحسنات البديعية التى أكثر منها .

البحترى

التعريف بالشاعر :

هو أبو عبادة الوليد بن عبيد البحترى الطائى ، ولد بمنبج سنة ٢٠٤ هـ بالقرب من حلب، وتنقل فى قبائل طيء وغيرها من البدو الضاربين فى شواطىء الفرات ، فغلبت عليه فصاحة العرب .

واتصل البحترى بأبى تمام وتتلمذ عليه فى الشعر ، وفى ذلك يقول البحترى «كان أول أمرى فى الشعر ونباهتى فيه أنى صرت إلى أبى تمام وهو بحمص ، فعرضت عليه شعرى ، وكان الشعراء يعرضون عليه أشعارهم فأقبل على وترك الناس ، فلما تفرقوا قال أنت أشعر من أنشدنى ، فكيف حالك ؟ فشكوت إليه خلتى ، فكتب إلى أهل «معرة النعمان» وشهد لى بالحذق فى الشعر، وشفع لى إليهم ، وقال امتدحهم ، فصرت إليهم بكتابه، فأكرمونى، ووظفوا لى أربعة آلاف درهم، وكان أول مال أصبته بالشعر.

كما اتصل بالخليفة المتوكل ووزيره الفتح بن خاقان ومدحهما وكان مع المتوكل والفتح فى المجلس الذى قتلا فيه ، فاختبأ تحت ستارة ونجا من القتل وبعدها رجع إلى منبج فأقام فيها مدة ، ثم عاد إلى العراق فمدح بعض الخلفاء الذين تولوا الخلافة بعد المتوكل ، وظل يتردد بين الشام والعراق حتى وافته منيته سنة ٢٧٤ هـ

شعره :

يمتاز شعر البحترى برقة الأسلوب وحسن الخيال ، وإجادة الوصف والرثاء ، والعتاب الغزل والمديح ، كما اتسم بجمال اللفظ وشرف المعنى . فقد استطاع البحترى بمذهبه فى الحفاظ على جودة اللفظ ، وروعة المعنى

أن يتسنم قمة الإبداع في حسن التعبير عن معانيه بوضوح وجمال ، فبدت وكأنها كما يقول ابن الأثير « نساء حسان عليهن غلائل مصبغات . وقد تحلين بأصناف الحلى ، وما يقصد ابن الأثير إلا هذا الرنين البديع الذى يلازم تعبير البحترى ، وهذه الرشاقة التى تصاحب تصويره ،

ويكفى فى هذا المقام أن نذكر قول ابن الأثير فى كتابه « المثل السائر » وهو يتحدث عن البحترى :

« وسئل أبو الطيب المتنبى عنه ، وعن أبى تمام ، وعن نفسه فقال « أنا وأبو تمام حكيمان والشاعر البحترى » ولعمرى إنه أنصف فى حكمه ، وأعرب بقوله هذا عن متانة علمه ، فإن أبا عبادة أتى فى شعره ، بالمعنى المقدود من الصخرة الصماء ، فى اللفظ المصوغ من سلاسة الماء ، فأدرك بذلك بعد المرام ، مع قربه - إلى الأفهام ، وما أقول إلا أنه أتى فى معانيه بأخلاط الغالية ، ورق فى ديباجة لفظه إلى الدرجة العالية .

وقول الثعالبى فى كتابه « برد الأكباد » إن أبا القاسم الإسكافى قال : استظهارى على البلاغة بثلاثة : القرآن ، وكلام الجاحظ ، وشعر البحترى .

هذا وإليك تصويره الرائع لمقدم الربيع ، وما يلابسه من حسن وجمال وروعة وبهاء ، وهذه الأبيات من قصيدة يمدح بهـا الهيثم بن عثمان الغنوى(١) .

---

(١) أنظر ديوان البحترى تحقيق حسن كامل الصيرفى المجـلد الرابع ٢٠٨٧

وصف الربيع

١ — أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا
من الحسن حتى كاد أن يتكلما

٢ — وقد نبه النيروز فى غلس الدجى
أوائل ورد ، كن بالأمس نوما

٣ — يفتقها برد الندى فكأنه
يبث حديثاً كان قبل مكتما

---

(١) الطلق : المشرق ، الخالى من الحر والبرد والمطر والريح وكل أذى.
يختال : يمشى فى زهو وعجب .

والمعنى : أقبل الربيع بوجهه المشرق الوضاء يمشى فى اختيال ، ويكاد لفرط إعجابه بحسنه وجماله أن يتحدث معبراً عن روعته وبهائه .

(٢) النيروز : أكبر أعياد الفرس ، ومعناه بالفارسية : اليوم الجديد ، وهو أول يوم من السنة الشمسية الإيرانية، ويوافق اليوم الحادى والعشرين من مارس أى مطلع الربيع .

ويرى البعض أن النيروز فارسى معرب ، ولم يستعمل إلا فى دولة بنى العباس ، ثم يقول ومنهم من يقول : نوروز وهو أقرب إلى الفارسية وأصح منها .

الغلس : ظلمة آخر الليل .

والمعنى : عند مقدم الربيع تتفتح الورود ، وتبتسم الزهور ، وكأنها نائمة فطاف بها النيروز فى ظلمة الليل يوقظها من نومها وينبهها عما هى فيه من سبات ،

(٣) يفتقها : يفتحها، الندى : قطرات الماء يبث الحديث : ينشره ويذيعه حديث مكتم : كلام مكتوم .

٤ - فمن شجر رد الربيـــع لباسه
عليـــه كما نشرت وشيا منمنما

٥ - أحل فأبدى للعيـــون بشاشة
وكان قذى للعـــين إذ كان محرما

= والمعنى : لقد ساعد الندى الرطيب على تفتح الورود ، وابتسام الزهور فانتشر أريجها ، وفاح شذاها ، كما ينتشر السر ويذاع بعد أن كان مستترا ومكتوما .

(٤) الوشى : نقش الثوب برسوم وألوان متعددة ، المنمنم : المزخرف المنقوش المزين .

والمعنى : فى الربيع لبست الأشجار ثوبها القشيب ، فقد اكتست بالأوراق والأزهار فكانت لها كالحلل المزخرفة بأجمل النقوش وأحسنها .

(٥) أحل : لبس ثياب الحل : والمراد : اكتست بالورق بعد أن كان عاريا فى الشتاء ، كما يحل الحاج فيرتدى ملابسه بعد انتهاء الإحرام .

أبدى : أظهر - بشاشة : حسنا وجمالا ، المحرم : الذى تجرد من ثيابه ، ولبس الإحرام فى الحج . والمراد أنه متجرد من ورقه كما يتجرد المحرم فى الحج من ملابسه المألوفة .

القذى : ما يقع فى العين وفى الشراب مما يسبب لها الضرر ، والمراد مؤلما .

والمعنى : أصبح منظر الأشجار فى الربيع حسنا يبهج القلب ويسر الخاطر ، بعد أن كان مجرداً من الزينة فى فصل الشتاء ، لا تروقه العين ، ولا يرتاح له القلب ولا تستريح له النفس .

٦ — ورق نسيم الريح حتى حسبته
يجيء بأنفاس الأحبـة نعما

---

(٦) نعما : متنعمين مترفين .

والمعنى : فى الربيع تحس بالنسيم رقيقا وكأنه أنفاس الأحبة المنعمين المترفين الذى يرفلون فى حال السعادة والهناء .

هذا . وبالتأمل فى هذه الأبيات نجد التآخى بين المعانى والألفاظ فالمعانى عند البحترى أرواح تتحرك وتتنفس ، فهو ينشىء لها الجو الملائم يمازج فيه بين الألوان ويؤلف ، ويربط فيه بين الأوزان ويوجد عملية من عمليات الصياغة الفنية ، يضرب فيها بريشته الضربات السريعة التى يقول عنها إنها « لمح تكفى إشارته » .

فهو حين يرسم لنا صورة الربيع يقدم لنا اجزاء الصورة متتابعا المعانى يأخذ كل جزء منها بأطراف سابقه ، كما فى قوله :

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحـكا
من الحسن حتى كاد أن يتكلما

إذ يمهد بهذا إلى اليقظة الحلوة التى تتنبه لها الطبيعة من غفوة كادت أن تكون مواتا ، ثم يصور لنا فى الجزء التالى من الصورة هذا التنبه الوادع الحالم بقوله :

وقد نبه النيروز فى غسق الدجى
أوائل ورد كن بالأمس نومـا

يفتقها برد النـدى فكأنه
يبث حديثا كان قبل مكتما

ولا يخرج الشاعر فى هذا الجو الحالم ، فهو يعطينا الصورة وادعة متمثلة فى حديث هادىء لاجابة فيه ولا اذور ، يبثه الندى فى حنان إلى الورد الذى بدأت أزراره تنحل عـــنه ليكشف عن مفاتنة ، وهذه خلجات تمتلج فى نفس الشاعر ، فهو يصورا حساسه الباطن ، ليعود فى الجزء الثالث من الصورة إلى الحس الواعى الذى يشترك فيه مع غيره من الناس فيقول :

فمن شجر رد الربيـــع لباســـه
عليه كما نشـــرت وشـــيا منمنما

وهو بهذا يكمل أجزاء الصورة السابقة ، فإن أول شىء يفكر فيه المستيقظ عندا نتباهه أن يأخذ أهبتة للقاء الناس باللباس الذى يروق لهم ، ثم يتابع هذا بقوله :

أحل فأبدى العيون بشاشة
وكان قذى للعـــين إذا كان محرما

فهو بعد أن طوف بخياله فى هذا المنسك الرائع من مناسك الطبيعة ، يرتد بذهنه إلى صورة من صور الواقع الحسى يستمدها من احرام الحجيج حين يتجردون من مخيط الثياب ويأخذ من هـــذا المشهد الذى بقى عالقا بذاكرته من حجتيه صوره لتجرد الأشجار من أوراقها وأزهارها .

فشاعرنا لا يكتفى بعرض اللوحة أمامنا بألوانها الطبيعية التى نقلها عن الطبيعة ذاتها ، ولكنه يدعنا نلمح فى أرضية اللوحة ظلالا أخرى تضفى على الصورة حيوية حين يمازج بين أحساس خفى ، وأحساس ظاهرى (١).

---

(١) انظر ديوان البحترى بشرح حسن الصيرفى ج ١ ٥١ .

وأيضاً نجد في النص الكثير من الصور البلاغية الرائعة التي ساعدت على إبراز المعنى في ثوب جميل أخاذ .

فإلى جانب أنه اختار الألفاظ المعبرة عن أحاسيسه بجمال الربيع وبهائه نحو : الطلق ، ويختال ، وضاحكا ، والحسن ، والبشاشة والرقة ، وما لها من تأثير قوي في النفس . ووقع جميل في الأذن .

فقد جاءت أبياته في صورة الأساليب الخبرية ليقرر في النفس مظاهر الجمال في الربيع ، ومدى حسنه وروعته .

كذلك فإننا نجد في البيت الأول : أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا .. الخ ، استعارة مكنية حيث شبه الربيع بإنسان ، ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه - كما ترى - :

وفي البيت الثاني : نجد الاستعارة المكنية أيضاً في قوله (وقد نبه النيروز) ، كما نجد التشبيه البليغ في قوله « كن نوما » والطباق الحسن بين : نبه ، ونوما .

وفي البيت الثالث : نجد كذلك الاستعارة المكنية في قوله « يبث حديثه » حيث شبه برد الندى الذى فتح الزهر ، فذاعت رائحته الطيبة بإنسان أذاع سرا مكتوما كما نجد الطباق الحسن بين يبث ومكتما .

وفي البيت الرابع : نجد الاستعارة المكنية أيضاً في قوله « أن شجر رد الربيع لباسه » حيث شبه الربيع بانسان يرد الثياب . كما نجد التشبيه في قوله : رد الربيع لباسه عليه - كما نشرت وشيا منمنما .

بيد أنه في البيت الخامس قد تكلف المقابلة عندما أراد أن يقابل بين أحل وبشاشه ، وبين قذى وعرما ؛ فجاء المعنى رديئا حيث

جعل منظر الشجر مؤلما للعين كمنظر المحرم فى موسم الحج ومن ثم فقد عيب عليه هذا البيت .

أما فى البيت السادس ففيه تشبيه حسن فى قوله «حسبته يجىء بأنفاس الأحبة نعما .

إن البحترى جدير بقول القائل : « أبو تمام والمتنبى حكيمان ، والشاعر البحترى » .

أبو الطيب المتنبي

التعريف بالشعر :

هو أبو الطيب أحمد بن الحسين، الملقب بالمتنبي ، ولد بمحلة كندة احدى محلات الكوفة ٣٠٣ هـ ، فنسب إليها :

وقد زعم بعض الرواة أن أباه كان يسمى عبدان ، كان فقيرا ، وأنه كان يسقى الماء ، وليس فى شعر المتنبي مايشير إلى شىء من ذلك .

نشأ أبو الطيب بالكوفة ، وفيها تعلم القراءة والكتابة فى صباه ، ثم خرج إلى البادية وخالط فصحاء البدو فأخذ عنهم اللغة ، وعاد إلى وطنه بدويا قحا ، ثم لازم الوراقين وقرأ كثيرا من الكتب ، فكان عليه من دفاترهم ، ثم رحل به أبوه إلى الشام، وهو فى نحو السادسة عشرة من عمره وخرج إلى بادية السماوه بالشام حيث قبائل بنى كلب ، فأقام فيهم ينشد شعره ، فعظم شأنه بينهم ، وقويت فصاحته فيهم ، كما كان يختلف إلى بعض أمصار الشام .

المتنبي فى السجن :

القول الذى لايتطرق إليك الشك أن المتنبي سيق إلى السجن ، وأحاطت به جدرانه ، وذاق فيه ، الكثير من الذل والهوان ، والتعب والعناء .

لكن الذى يتطرق إليه الشك ، ويجرى فيه الخلاف ، وتتضارب فيه الأقوال أن حادثة بادية السماوه ، وإعجاب الأعراب هناك به ، ورغبتهم فى أن يجعلوه أميرا عليهم ، هى التى أقضت مضجع أبى لؤلؤ أمير حمص حملته على أن يقبض عليه ، صونا لرقعة الدولة الاخشيديه من العبث، وحماية

لها من الشعب، وتوطيدا لأركانها حتى لا تنال منها الهزات الطائشة ، والثورات المعادية .

فإن كثيرا من المؤرخين يؤولون ذلك السجن تأويلا آخر ، ويزعمون أن أبا الطيب حينما شعر بالتفاف أعراب البادية به ، وأقبالهم عليه ، أراد لنفسه تمكنا في قلوبهم أكثر ، وسلطانا أوسع ، وجاها أعلى ، فادعى النبوة .

وهنالك فريق آخر من الذين كتبوا عن المتنبي ، وتعرضوا السجنة ، يدعون أنه دخل السجن مرتين متواليتين ، أحداهما كانت للشغب على الخلافة أو الدولة الاخشيدية والثانية كانت لادعائه النبوة .

والذى نميل إليه أن القول بادعائه النبوة ؛ يفتقر إلى الدليل ، لأنه بنى على روايات واهية الأسانيد .

ثم كيف ساغ للناس أن ينسبوا المتنبي صاحب هذا العقل الجبار والفكر الناضج ، والرأى السديد ، والذهن الواسع ، والقلب الكبير ، والفؤاد الذكى والفلسفة الرائعة ، والحكمة البالغة ، أن ينحدر هذا الانحدار الشنيع فيدعى النبوة ؟

والجواب على ذلك لا يكون إلا بالنفى ، لأن المتنبي ليس مغرورا إلى هذا الحد الذى يدفعه إلى إدعاء دعوى مردودة ، أو زعم شىء مكذوب ، أو اختلاف خبر غير صادق ، وقد روج لهذا الحديث امران اثنان .

الأمر الأول : خصومة الأعداء الذين كانوا لا يسكتون عن محاربته ، ولا ينامون عن الكيد له ، والعمل على تشويه محاسنه ، وانتحال العيوب له ، والحديث فيهم يطول ، وتسجيل مواقفهم منه لا تنتهى ، فقد عاش عمره كله يعانى منهم ويحتمل من شرورهم ، ويشكوا من أذاهم من سوقة ، كابن كروس الأعور الا لكن الذى كان يهجوه بقوله :

فيابن كروس يانصف أعمى
وإن تفخر فيانصف البصير
تعيرنا بأنا غير لكن(١)
وتهجونا لانا غير عور

إلى سادة كالوزير الخطير فى دولة بنى بويه الصاحب بن عباد الذى كتب المجلدات فى نقده ، والتشهير به ، والاعلان عن مساوئه .

الأمر الثانى : المتنبى نفسه ، فإن تعاليه على الأقران ، وزعمه فى نفسه أن الله سبحانه قد ميزه على المعاصرين له ، وخصه بشىء من الفضل على سواه واعتقاده أن شعره آيات محكمة يرويها الدهر ، ويحفظها التاريخ ، ويزدان بها جيد الزمن ، وتنتشى برحيقها الدنيا ، جعله يفهم أنه المشعل الذى يبدو ظلام النفوس والهدى الذى يزيل جهالة القلوب العمى ، ويرشد الأفئدة الحيرى ، وأنه لم يوجد فى بيئته إلا ليأخذ بيدها إلى النور ، ويحول اتجاهها إلى الخير ويوقظ عقولها إلى الصواب ، وربما غلبه وعيه ، وخانه لسانه ، وانحرف به بيانه إلى مثل قوله :

أنا فى أمة تداركها الله
غريب كصالح فى ثمود

أو قوله فى موضع آخر :

ما مقامى بأرض نخلة إلا
كمقام المسيح بين اليهود

---

(١) جمع الكن وهو الذى فى لسانه حبسة تعوقه عن الكلام

وكل واحد من هذين الأمرين كفيل أن يثير عليه الحوادث ، ويثير له الفتن ، أو يسوق إليه المصائب ، ويجلب له المتاعب ، فكيف وقد كانا مجتمعين

وعلى كل حال لم يكن من شأن المؤرخ للمتنبي أن يتناول في تاريخه حوادث شغبه على الخلافة ولا تمرده على الحكام ، ولا أن سجنه كان لهذا التمرد ، وإعلان الشيعة خلافته عليهم ، أو أن سجنه كان لادعائه النبوة ، لكننا رأينا أن ذلك كله كان عاملا مهما في أدبه ، ومؤثرا قويا في شعره ، وأستاذا كبيرا من أساتذته الذين فتحوا له الطريق إلى الشهرة ، ومهدوا له السبيل إلى نباهة الشأن(١)

حياته ووفاته :

بعد أن أخرج المتنبي من السجن جال بعد ذلك في أمصار الشام ، يمدح الولاة والعظماء فيجزلون له العطاء ، حتى اتصل بسيف الدولة علي بن أبي الهيجاء الحمداني ، أمير حلب سنة ٣٣٧ هـ فصار أكبر شعرائه ، ومدحه بقصائد خالدة من خير شعره . وتعلم عنده الفروسية ، وحضر معه وقائعه في الروم ووصفها أحسن وصف ، وبقي أثيرا عند سيف الدولة ، حتى حسده بعض حاشيته ، كأبي فراس الحمداني ، وابن خالويه النحوي فأغاروا قلب سيف الدولة عليه ففارقه المتنبي على كره سنة ٣٤٦ هـ بعد أن لازمه أكثر من تسع سنين

خرج المتنبي من حلب فجال في بعض نواحي الشام وفلسطين ، فكتب كافور الأخشيدي إلى عامله بالرملة ليبعث به إليه ، فجاء المتنبي مصر وأكرمه كافور ، فطلب منه المتنبي أن يوليه ولاية في مصر أو الشام ، فوعده كافور أولا ثم ماطله لما رأى من تعاليه ، وما عرف عنه من أمر النبوة ، وخشي

(١) انظر الأدب العباسي د ابراهيم أبو الخشب ٤١٧ - ٤٢٣

إن هؤلاء أن يطمع فى ملك مصر من بعده ، فقال لمن عاتبه فى أمره :
« ياقوم ، من ادعى النبوة بعد محمد ، أمايدعى المملكة بعد كافور ؟ فحسبكم

فلما يئس المتنبى منه خرج من مصر ليلة عيد النحر ٣٥٠ هـ قال إلى الحجاز ، حتى إذا دنا من مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، سار من ثمة إلى الكوفة ، فوصل إليها ٣٥١ هـ ، وفى الكوفة وطنه الأول لبث إلى سنة ٣٥٣ هـ

وفى أوائـــل ٣٥٤ هـ أراد المتنبى أن يطوف فى العراق ، فكتب إليه أبو الفضل بن العميد وزير الركن الدولة بن بوية يستزيره بأرجان ، فقصد إليه المتنبى ومدحه بمدائح فخمة ، فأجزل صلاته ، ثم كتب إليه عضد الدولة بن بويه يستزيره بشيراز فذهب إليه ومدحه ، وعاد من عنده ، ومعه من الأموال والنفائس شىء كثير .

ولما قرب من بغداد خرج عليه جماعة من البدو فقتلوه عند دير العاقول وقتلوا معه ابنه محسدا ، وغلامه مفلحا ، وأنتهبوا ماكان معه من الأموال والنفائس ، وذلك فى أواخر رمضان ٣٥٤ هـ

شعره :

الكلام كثير فى شعر أبى الطيب ، وتفوقه على شعراء عصره ، بل شعراء العربية قاطبة وليس هذا موضع بسط الحديث فى هذا وأشباهه ، وإنما نسجل هنا ظاهرة امتاز بها شعر أبى الطيب ، تلك هى تأثير البيئة العامة فى شعره حتى كان أشبه بمرآة تنعكس عليها أحوال الناس فى القرن الرابع الهجرى ، ذلك إلى مايظهر من خلال أشعاره من تأثير بيئته الخاصة وصورة

نفسه القلقة، ومزاجه الحاد، وأخلاقه الصارمة، فكل هذا نراه واضحا ونحسه قويا فى ديوانه :

فقد نشأ المتنبى منذ صباه، فى بيئة لايسمع فيها إلا صليل السيوف، إذ كانت المملكة العربية فى عصر الانحلال، والانقسام إلى مايشبه نظام ملوك الطوائف، وقد رأى الدولة تتقاسمها الأهواء والنزعات، وتتعاورها عوامل الهدم فى كل ناحية، فمن ثورات ملوك لإنشاء الأوطان المستقلة، إلى فتن الخوارج على الدولة، وقد تأثر المتنبى بهذه الأحوال، وظهر أثرها قويا جدا فى شعره الثائر، وأكثر من ذكر الحرب والطعن، وتغنى بالسيف والرمح .

وشهد كثيرا من المعارك التى نشبت بين المسلمين والروم، وهو فى حاشية سيف الدولة ووصفها، فبرع فى هذا الفن براعة تفوق بها على الشعراء، وذلك كقوله من قصيدة فى مدح سيف الدولة :

وقفت وما فى الموت شك لواقف
كأنك فى جفن الردى وهو نائم

تمر بك الأبطال كلمى هزيمة
ووجهك وضاح وثغرك باسم

كما أختلف كثيرا إلى البادية، وأقام بها، فتعلق بغريب لغاتها، وشاعت المعانى البدوية فى كلامه .

أما تأثير البيئة الخاصة، فقد نشأ المتنبى من أسرة رقيقة الحال على مايظهر من كتب التراجم لكنه كان يشعر بسمو مواهبه، فيفخر بنفسه وذلك إذ يقول :

مابقومى شرفت بل شرفوا بى ... وبنفسى فخرت لابجدودى

كما كان فطنا خبيرا بخبايا النفوس ، ولذلك كان يحسن ما اتصل بالطبائع والأخلاق من المعانى كقوله :

إنما أنفس الانيس سباع يتفارسن جهـــرة واغتيالا

كل غاد لحاجة يتمـــنى أن يكون الغضنفر الرئبالا

من أطاق التماس شيء غلابا واغتصابا لم يلتمســـه سؤالا

وكذلك عرف المتنبي قيمة المال منذ صباه ، وكان طموحا إلى ابتناء المجد فأحب أن يصل إليه من طريق المال ، فحرص عليه ، وجد فى طلبه ، فمدح الملوك والعظماء استدرارا للعطاء ، وكان طمعه فى المال يوقظ خياله ، وينشط فكره . فيأتى بالمعانى المبتكرة .

وخلاصة القول : إن شعر أبى الطيب مرآة لعصره ونفسه وهو مظهر لهمته العالية ، ونفسه الطموح ، وأخلاقه القوية ، وقد مضى على مقتله ألف عام أو تزيد ولا يزال شعره حيا فينا ، قوى التأثير فى نفوسنا يملؤنا اعجابا بنبوغه ، ويملؤنا حرصا على التمسك بمثله العليا كالشرف والشجاعة ، وعلو الهمة ولا يزال الناس حتى اليوم فى شغل به كما يقول ابن رشيق ، ولا يعرف شاعر فى العربية احتفل بنبوغه القدماء والمحدثون من العلماء والنقاد حفاوتهم بأبى الطيب ، ولئن كان احتفال القدماء به عظيما فإن احتفال المحدثين به لأعظم ، وحسبه فخارا أن العلماء فى الشرق والغرب أقاموا فى كل بلد عيدا ، احتفاء بذكراه ، ولئن فاته العرش الذى كان يبغى الوصول إليه فى حياته فقد تبوأ عرش القلوب بعد مماته ، وهو الشاعر الخالد الذى يروى حكمه السائرة فى كل يوم الآلاف من الادباء والعلماء وغيرهم ويحسبه أن يقول :

وما الدهر إلا من رواة قصائدي

إذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا

فسار به من لا يسير مشمرا

وغنى به من لا يغني مغردا(١)

---

(١) انظر ديوان المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري بتحقيق مصطفى السقا ج ٤ ٣٨٦ - ٣٩٠

وإليك طرفاً من قصيدته التي يعبر فيها عن عواطفه ومشاعره ، عندما أصابته الحمى بمصر ، وضاقت نفسه بها ، وكرهها ، ولكنه احتفظ بروحه القوية التي لا يضعفها مرضه .

وصف الحمى

١ — وزائرتي كأن بها حياء	فليس تزور إلا في الظلام
٢ — بذلت لها المطارف والحشايا	فعافتها وباتت في عظامي
٣ — يضيق الجلد عن نفسي وعنها	فتوسعه بأنواع السقام
٤ — كأن الصبح يطردها فتجري	مدامعها بأربعة سجام

---

١ ـ المراد بالزائرة : الحمى

والمعنى : إنها تأتيه ليلا ، وكأن بها حياء ، فليست تزور إلا في الليل .

٢ — المطارف : جمع مطرف ، وهو الذي في جنبه علمان ، والحشايا : جمع حشيه وهو ما حشي من الفرش مما يجلس عليه .

والمعنى : هذه الزائرة ـ يعني بها الحمى ، التي كانت تأخذه في مصر ـ لا تبيت في الفراش ، وإنما تبيت في عظامي .

٣ ـ المعنى : يضيق جلدي ، فلا يسعها ، ولا يسع أنفاس الصعداء ، والحمى تذهب لحي ، فتوسع جلدي ، بما توردده على من أنواع السقام .

٤ ـ بأربعة سجام أي ذات سجام ، سجم العين الدمع : أسالته .

والمعنى : أنها تفارق عند الصبح ، فكأن الصبح يطردها ، وأنها إذا فارقته تجري مدامعها من أربعة سجام يريد : كثرة الرحضاء وهو عرق الحمى ، فكأنها تبكي عند فراقه محبة له .

٥ — أراقب وقتها من غير شوق مراقبة المشوق المستهام
٦ — ويصدق وعدها والصدق شر إذا ألقاك فى الكرب العظام
٧ — أبنت الدهر عندى كل بنت فكيف وصلت أنت من الزحام
٨ — جرحت مجرحا لم يبق فيه مكان للسيوف ولا السهام
٩ — ألا ليت شعرى يدى أتمس تصرف فى عنان أو زمام
١٠ - وهل أرى هواى براقصات محلاة المقاود باللغام

المعنى : يقول أنا أنتظر وقت مجيئها ، كما ينتظر المشوق مجىء حبيبه ، وذلك أن المريض يجزع لورود الحمى ، فهو يراقب وقتها خوفاً لاشوقا .

٦ - المعنى يريد أنها صادقة الوعد فى الورود ، وذلك الصدق شر من الكذب لأنه صدق يضر ولا ينفع ، كمن أوعد ثم صدق فى وعيده .

٧ - يريد ببنت الدهر : الحمى ، وبنات الدهر : شدائده .

المعنى يقول للحمى عندكل شديدة ، فكيف وصلت إلى ؟ وقد تزاحمت الشدائد على ، ألم يمنعك زحامها من الوصول إلى ؟

٨ - المعنى : جرحت رجلا من كثرة ملاقاته الحروب ، لم يبق فيه مكان لضرب السيوف ولا للسهام .

٩ — العنان : للفرس ، والزمام للإبل .

المعنى : يقول : ياليت يدى علمت هل تتصرف بعد هذا فى عنان الفرس؟ أو زمام الإبل ؟ يعنى ليتنى علمت هل أصح فأسافر وأتصرف فى أزمة الإبل ، وأعنة الخيل .

١٠ - الراقصات : الإبل تسير الرقص ، وهو ضرب من الخبب، يقال :

١١ - فربتما شفيت غليل صدرى ... بسير أو قناة أو حسام
١٢ - وفارقت الحبيب بلا وداع ... وودعت البلاد بلا سلام

فلسفته مع هذا المرض

١٣ - يقول لى الطبيب أكلت شيئا ... وداؤك فى شرابك والطعام
١٤ - وما فى طبه أنى جواد ... أضر بجسمه طول الجمام

= رقص البعير رقصا : إذا خب، واللغام : زبد يخرج من فم البعير أبيض ، وجمع لغام لغم .

المعنى : يقول : المقاود حليت من اللغام ، فجعله لبياضه كالفضة ، وهى ترقص فى سيرها ، فهل أبلغ مرادى بسيرها .

١١ - الغليل : حر الصدر ، يكون من عشق وغيره ، والحسام : السيف القاطع .

المعنى : إنه لما كان صحيحاً كان مسافراً ويقاتل فيشفى غليله بالسير إلى مايهواه بالرمح والسيف .

١٢ — المعنى : يقول : ربما فارقت الحبيب بلا وداع ، يريد أنه قد هرب من أشياء كرهها ، فلم يقدر على توديع الحبيب ، ولاأن يسلم على أهل ذلك البلد الذى هرب منه .

١٣ - المعنى : يقول: الطبيب يظن سبب دائى الأكل والشرب ، فيقول لى : أكلت كذا وكذا ، يعنى مما يضر ، فسبب دائك الأكل والشرب .

١٤ - الجمام : أن يترك الفرس فلايركب .

المعنى : يقول : ليس فى طب الطبيب أن الذى أضرنى وبجسمى =

١٥ — تعود أن يغبر فى السرايا
ويدخل من قتام إلى قتام

١٦ — فأمسك لايطال له فيرعى
ولا هو فى العليق ولا اللجام

١٧ — وإن أمرض فما مرض اصطبارى
وإن أحمم فمـــا حم اعتزامى

١٨ — وإن أسلم فما أبقى ولـكن سلمت من الحمام إلى الحمام

— طول لبثى وقعودى عن السفر ، كالفرس الجواد ، يضر بجسمه طول قيامه ، فيصير به جموما ، والجمام ضد التعب .

١٥ — القتام : الغبار ، والسرايا جمع سرية ، وهى التى تسرى إلى العدو

المعنى : يقول : تعود هذا الجواد أن يثير الغبار فى العساكر ، ويدخل من هذه الحرب إلى حرب أخرى ، وأراد بدخول القتام حضور الحرب .

١٦ — المعنى : أمسك هذا الجواد لايرخى له الطول فيرعى فيه ، ولاهو فى السفر فيعتلف من الخلاة ، وليس هو فى اللجام ، وهذا مثل ضربه لنفسه ، وأنه حليف الفراش ، ممنوع الحركة ، ظاهر الكلام متعلق بالعلة ، ويجوز أن يعنى به كافوراً ، إذ منعه إياه مما طلب من الانصاف .

١٧ - المعنى : إنى إن مرضت فى بدنى ، فإن صبرى وعزمى على ما كانا عليه من الصحة .

١٨ - المعنى يقول : فإن أسلم من مرض لم أبق خالدا ، ولـكن سلمت من الموت بهذا المرض إلى الموت بمرض ، وسبب آخر .

وهو كقول طرفه

لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى لكالطول المرخى وثنياه باليد

إنه المتنبى ينفعل مع عاطفته ضد هذه الحمى ، فيضيق بها ، ويصب حنقه وكرهه عليها ، وهو يحلق بخياله ليتصور هذه الحمى كالزائرة الثقيلة الظل التى تأتيه ليلا ، وتصر على أن تصحب الشاعر على كره منه ولكنه يبذل لها الفراش الوثير لتبيت فيه بعيدا عنه ، فتأبى ولا تبيت إلا فى عظامه .

والمتنبى لا صبر له على هذا الثقل،فيضيق جلده بها ، وحين تهم بالرحيل عنه تغسل جسده بما يفيض عليه من عرق متصبب .

ويتجه خيال الشاعر الذكى فى تصوير الصباح وهو يطارد تلك الحمى التى لازمته طوال الليل ، فإن أصبح الصبح تسللت هاربة على كره منها ، ولذلك فهى تبكى بالدمع الهتون ، ولكن مابر فيقها شوق لها وهو يرقب موعد عودتها على غير شوق ، ولا رغبة فيها ، وما أخبثها إنها تصدق الوعد والشر فى ذلك الصدق فتعود لتكرر معه مأساة ألمه .

أما عن فكرة الشاعر فى هذه الأبيات فإننا نلمسها وهو يعالج أمر تلك الحمى التى تهاجمه على غير شوق منه ، ويظهر تبرمه بها ، وسخطه عليها وهو يصل إلى ذلك بعبارته الناصعة الشعرية الجميلة .

ألست تحس بجمال صورة ينقل فيها خطى الحمى، وهى تتسلل خاسئة ، وقد استترت تحت جنح الظلام ؟

ثم تتبعه وهو يشبهها بالدخيل المتطفل الذى يولى الأدبار حين يبدأ الصبح يطارده ، ومع أن الشاعر لا يود عودة تلك الزائرة فإنها صدقت فى وعدها وعادت إليه .

ويحترز الشاعر هنا ليوضح ضيقه بهذا الصدق فيقول « الصدق شر » والذى نعرفه جميعا ونقبله أن يكون الصدق خيرا لكنه اتسم بالشر لأنه من تلك الحمى المؤلمة .

إنك تقرأ أبياته فتحس به شاعرا مطبوعا لا يتكلف ولا يتصنع بل إن ألفاظه سهلة معبرة ، موحية بما فى نفس صاحبها ، ناطقة كذلك بقدرته على نشر موسيقاه فى أبياته .

أنظر إليه وهو يتعجب من وصول الحمى إليه ، وهو الذى عانى ما عانى من الشدائد والمحن حتى لم يبق فى جسمه مكان يستقبل فيه طعنات أو رمى السهام ، ثم هو يتمنى أن يشفى غليل صدره ليعاود مرة أخرى خوض ميادين القتال .

ثم انظر إليه ، وهو يرد مرضه إلى الزمن الظالم الذى فرض عليه الاستقرار والهدوء بعد أن طالت مشاركته الجيوش ، وما عرف جسمه الراحة كالجواد الذى تنهك قواه حين تحول بينه وبين ميدان نشاطه ، وهى الخروج من معركة إلى معركة ، ومع ذلك فلن ينال المرض من قوة صبره واحتماله ولن تصيب الحمى عزمه المتوقد دائما ، وهو إن سلم من المرض ليلتقى بالموت فى ميادين أخرى .

إن عاطفة المتنبى هنا واضحة صادقة ، فهو ساخط على الحمى ضائق الذرع بها ، وأفكاره كذلك تساند هذه العاطفة ، وهو يستعين بالعبارة الرصينة المطبوعة لينفذ إلى نفس سامعه ، وينقل إليه فكرته عن الحمى ، وفكرته عن طموحه وآماله ونفسه العالية التى لا تلتصق بالأرض حتى ولو كبا الجسم تحت وطأة المرض .

ثم كم تروعنا هذه الطاقة الموسيقية التى يشحن بها المتنبى أبياته ومرد هذه الموسيقى ، هو إلى قدرة الشاعر على اختيار ألفاظه اختيارا موفقا لحين ينظم بعضها مع بعض تكون بمثابة اللحن المنسجم الذى تتهادى أنغامه إلى الأذن فى رفق ودقة ، أو فى عنف واندفاع ، ولكن لا نستطيع تحديد مصدر الانسجام الذى نلتذ به تحديدا قاطعا .

إن أبيات المتنبي ترسم صورة للحمى ولحاله معها ، والمادة التي تلون هذه الصورة هي الألفاظ والعبارات ، ولو قرىء كل بيت وحده لفقد قيمته التي يستمدها من نسقه في الصورة الكاملة ، لأن كل بيت في الصورة الشعرية يشكل خطا أو خطوطا ، ويصبغها بلون أو ألوان فيتألف من الأبيات مجتمعة منظر كامل ، أو صورة كاملة ، تعبر عن ضيق المتنبي بالحمى وألمه منها وتعبر عن تصوره لها(١) .

هذا وفي تصوير الحمى في صورة الزائرة خيال رائع حيث صور الحمى في صورة فتاة تزوره ليلا لحياء فيها .

وفي قوله بذلت لها المطارف والحشايا كناية عن كرهه لها وبغضه اياها وفي قوله : يضيق الجسم عن نفس وعنها كناية عما أصابه من ضعف في صحته وهزال في جسمه .

وفي قوله : أراقب وقتها ، مراقبة المشوق تشبيه رائع .

وفي قوله — من غير شوق — احتراس جميل .

وفي قوله : « كيف وصلت من الزحام » استفهام قصد به التعجب .

وفي قوله « عندي كل بنت » كنايه عما أصابه من شدائد ومحن .

وفي قوله « جرحت مجر حالم يبق فيه . . الخ » كناية عن خوضه المعارك الكثيرة ، وما أصابه من طعن وضرب .

وفي قوله « ليت شعري يدي أتمس تصرف في عنان أو زمام » تمني بعودة الحرية إليه .

---

(١) انظر الاساس في النقد والبلاغه د/ أحمد الحوفي ١٢ ، ١٣ .

وفى قوله « إنى جواد » تشبيه بليغ .

وفى قوله « فإن أمرض فما مرض اصطبارى .

استعاره ، حيث شبه قلة الصبر بالمرض ، لما لكل منهما من الدلالة على الضعف .

كذلك فى قوله « ماحم اعتزامى » استعارة ، حيث شبه انحلال العزم بالاصابة بالحمى ، لما لكل منهما من التأثير السىء .

أبو العلاء المعرى

التعريف بالشاعر :

هو أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخى .

ولد بمعرة النعمان ، من أعمال حلب فى غروب شمس يوم الجمعة لثلاث بقيت من شهر ربيع الأول سنة ٣٦٣ هـ :

وأصابه جدرى فى أول السنة الرابعة من عمره ، فذهب ببصره ، وروى عنه أنه كان يقول : لا أعرف من الألوان إلا الأحمر لأنى ألبست فى الجدرى ثوبا صبغ بالعصفر ، ولست أعقل غير ذلك .

وكان يحمد الله على العمى ، كما يحمده غيره على البصر ، لأنه أعفاه به من رؤية الثقلاء :

وأبو العلاء من بيت عرف بالعلم وولاية القضاء ، أما أهل أمه فآل سبيكة . وقد كانوا أهل سماحة ونجدة ومروءة وفتوة .

قرأ فى أول أمره على أبيه علوم النحو واللغة ، ثم قرأ على غيره من علماء عصره ، وأخذ الحديث عن أبيه وجده ، وحدث وحدث عنه ، وأخذ عنه الناس فنون العلم ، وقال الشعر وهو ابن إحدى عشرة سنة ، أو اثنتى عشرة سنة ، ولكنه لم يجعله وسيلة للكسب ، ولم يكن من دأبه أن يمدح إنسانا رغبة فى ثوابه ، أو طمعاً فى ماله .

رحل إلى بغداد ، وهى ملتقى العلماء ، ومحط رحال الأدباء ، وقابل عددا من رجالاتها فى العلم والشعر والأدب ، ومكث فيها حقبة من الزمن بيد أنه لم يطب له فيها العيش ، فرجع إلى منزله بالمعرة :

وكان اتصاله بالناس ، وبالمجتمع من عوامل ميله إلى التشاؤم والعزلة فقد قيل إنه تعرض لسخرية بعض الناس ، فعاد إلى بلده ، وآلى على نفسه ألا يبرح منزله حتى الموت ، وظل وفيا لهذا العهد ، ومن ثم فقد سمى رهين المحبسين لفقد بصره ، ولزوم بيته ، ومحبس ثالث هو احتباس روحه فى جسده وفى ذلك يقول :

أرانى فى الثلاثة من سجونى
فلا تسأل عن الخبر النبيث(١)

لفقدى ناظرى ، ولزوم بيتى
وكون النفس فى الجسم الخبيث

مؤلفاته :

يذكر المؤرخون أن للمعرى مؤلفات كثيرة ، وأن له من الشعر أكثر من مائة ألف بيت ، وأن أكثر مؤلفاته قد فقد فى حملة الصليبيين الأولى على الشام وسقوط المعرة فى أيديهم سنة ٤٩٢ هـ ، وقد قتلوا أهلها المسلمين، وأبادوا كل ما بها ، أما ما وجد منها فكان قد خرج قبل ذلك : وعرف بين الناس :

شعره :

لأبى العلاء شعر قاله فى شبابه وجمعه ديوانه « سقط الزند » وقد جارى فيه شعراء عصره فى البديع ، كما استعمل الغريب ليدل على مقدرته ، وقد سلم له فى هذا الطور جملة من القصائد :

---

(١) النبيث : الخبر السيء .

وله شعر قاله فى شيخوخته ، ويجمعه ديوانه « اللزوميات » وقد ضمنه الكثير من آرائه فى الدين والنفس ، والخليقة والوجود .

هذا ولتأثره بالفلسفة الهندية فقد حرم على نفسه أكل الحيوان ، وما يشتق منه ، وتوفى سنة ٤٤٩ ﻫ .

وإليك طرفا من قصيدة يرثى فيها صديقه أبا حمزه الفقيه الحنفى .

لا يجدى الحزن ولا السرور

١ — غير مجـــد فى ملتى واعتقادى
نوح باك ولا ترنم شاد

٢ — وشبيه صوت النعى إذا قيـ
ـس بصوت البشير فى كل ناد

---

(١) غير مجد : غير نافع ، ملتى : مذهبى ، ترنم : غناء ، شاد : مغنى :

والمعنى : البكاء والنواح ، وشدة الحزن ، لا تجدى ولا تنفع ، وكذلك الترنم والانشاد ، والفرح والسرور ، لأن هذه الأمور كلها ان تحقق لصاحبها ما يريده ، وما ينشده .

(٢) النعى : من يخبر بالموت ، قاس الشىء بالشىء : قدره به :
البشير : الذى يبشر بخبر سار ، النادى : مجتمع القوم .

والمعنى : إن البكاء على الميت لا يفيد فى إرجاعه ، والغناء للمولود لا يكفل له الخلود فى الحياة ، ومن هنا فإنه يتشابه عندى صوت النعى لأنه يخبر بفناء إنسان ، وصوت البشير لأنه يخبر بأن إنسانا بدأ يسلك طريقا سينتهى به الفناء .

٣ — أبكت تلكم الحمامة أم غنـ
ت على فرع غصنها الميـــاه

الموت عظة

٤ — صاح هـذى قبورنا تملأ الرحـ
ـب فأين القبور من عهد عاد

٥ — خفف الوطء ما أظن أديم الـ
أرض إلا من هـــذه الأجساد

---

(٣) تلكم : اسم اشارة للبعيد ، فرع الغصن : أعلاه ، المياد : المتمايل.

والمعنى : يستوى عندى بكاء الحمامة ، وغناؤها على الغصن المتمايل ، فكل هذه المظاهر لا تخفف من وطأة الحياة وقسوتها . وما فيها من تعب وعناء .

(٤) صاح : يا صاحبى ، الرحب : المكان الواسع ، عاد : قبيلة عربية قديمة ، وهم قوم هود .

والمعنى : هذه قبورنا تملأ الفضاء الواسع ، وتجمع الكثير من الآباء والأجداد فى أيامنا هذه ، فما بالك بالقبور التى حوت ، وطوى فيها أجساد السابقين من يوم عاد إلى يومنا ، لا شك أنها بليت وتحللت أجسام من فيها إلى عناصر غطت وجه الأرض :

(٥) الوطء : وضع القدم ، وخفف الوطء : سر على الأرض فى مهل أديم الأرض : ظاهرها .

والمعنى : إن ذرات هذه الأرض التى تطؤها بقدميك هى من أجساد آبائك وأجدادك ، فعليك أن تتئد فى سيرك ، وأن تتمهل فى مشيك .

٦ — وقبيح بنـــا وإن قدم العهـــ
ـد هوان الآباء والأجـــداد

٧ — سر إن اسطعت فى الهواء رويدا
لا اختيـــالا على رفات العباد

٨ — رب لحد قد صار لحد امرارا
ضاحك من تزاحم الأضـــداد

---

(٦) قدم العهد: بعد الزمن ، هوان : إهانة واحتقار ، والمراد : الإساءة إلى الآباء .

والمعنى : إنه لمن القبح منا أن نهينهم فنمشى مختالين على أجسادهم مهما طال عهد موتهم .

(٧) اسطعت : استطعت ، رويد : ترفقا وتمهلا ، اختيالا : تبخترا الرفات : العظام البالية :

والمعنى : الجدير بنا أن نسير فى الهواء إن استطعنا إلى ذلك سبيلا وأن يكون سيرنا فى رفق وهوادة ، حتى لانطأهم بالأقدام ، وليس من حقنا أن نسير مختالين على ما تحطم من أجساد الناس :

(٨) اللحد : القبر ، الأضداد : الأخيار ، والأشرار ، والإنسان ، وعدوه ، وتزاحم الأضـداد : اجتماع المتناقضات ، وتزاحمها فى القبر ، كاجتماع الغنى مع الفقير ، والقوى مع الضعيف ، ضاحك : متعجب :

والمعنى : إن من عجائب هذه الحياة ، أن القبر الواحد ، قد صار مقبرة لموتى كثيرين ، وهو يضم أشخاصا تباينت طباعهم ، =

٩ — ودفين على بقـــايا دفين
في طويل الأزمان والآباد

١٠ — تعب كلها الحيـــاة فما أعـ
ـجب إلا من راغب في ازدياد

= واختلفت منازلهم ، فمنهم الغنى ، والفقير ، والقوى ، والضعيف ، والصالح ، والطالح ، والقبر يسخر من تلك المتناقضات ، ويضحك من هذه الأعاجيب .

(٩) دفين : مدفون . الآباد جمع أبد الدهر :

والمعنى : إننا نشاهد الموتى على طول الزمن يدفن أحدهم على بقايا من سبقه .

(١٠) راغب في ازدياد : متعلق الحياة :

والمعنى : إنى لأعجب من حرص الإنسان على طول بقائه في الحياة مع أنها كلها متاعب .

الموت سبيل إلى الخلود

١١ — خلق الناس للبقاء فضلت
أمــة يحسبونهم للنفــاد

١٢ — إنما ينقلون من دار أعما
ل إلى دار شقــوة أو رشاد

١٣ — ضجعة الموت رقدة يستريح الـ
جسم فيهــا والعيش مثل السهاد

---

(١١) النفاد : الفناء — أمة : جماعة ، والشاعر يعرض بالدهريين الذين يقولون بفناء الإنسان روحا وجسدا :

والمعنى : خلق الله الناس للبقاء والخلود ، ومن ظن أنهم خلقوا للعدم والهلاك ، فقد ضل ضلالا مبينا .

(١٢) دار أعمال : هى الدنيا ، دار شقوة : جهنم ، دار رشاد : الجنة :

والمعنى : إن الناس ينقلون من الدار الدنيا التى هى دار العمل ، والسعى ، إلى الدار الآخرة التى هى دار الحساب ، والجزاء ، وكل إنسان مجزى بعمله ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشرا ، فالجنة لمن عمل صالحا ، والنار لمن اقترف سيئا .

(١٣) السهاد : الأرق والسهر :

والمعنى : ما الموت إلا راحة قصيرة ينتقل الإنسان بعدها إلى دار الخلود ، أما الحياة فما أشبهها بالسهاد الذى يعترى الإنسان ثم يصحو بعده ، ويرى الحقيقة :

رثاء أبي حمزة

١٤ — قصد الدهر من أبي حمزة الأوا
ب مولى حجا وخدن اجتهاد

١٥ — وفقيها أفكاره شدن للنعـ
ـمان مالم يشده شعر زياد

١٦ — روايا للحديث ، لم يحوج المعـ
ـروف من صدقه إلى الإسناد

---

(١٤) قصد : عمد واتجه ، آب : رجع ، والأواب : الراجع إلى الله ، المنصرف إلى تسبيحه ، المولى : الصاحب ، والحجا : العقل ، الخدن : الصاحب والمراد : إنه يقف على قدم راسخة فى استنباط الأحكام الشرعية . والاجتهاد فيها .

والمعنى : لقد كان أبو حمزه عابدا خاشعا يتجمل بعقله الراجح ، وفكره واجتهاده الأصيل ، وعلمه الغزير .

(١٥) شدن : فعل ماض مسند إلى نون النسوه ، والنعمان : هو أبو حنيفة النعمان بن المنذر ملك الحيرة .

والمعنى : إن أبا حمزه ، وقد فقه فى دين الله ، فقد رفع مذهب أبي حنيفة النعمان ، وأعلى من قدره ، ورفع من منزلته . وجعل له شهره تفوق الشهرة التى شادها النابغة الذبيانى للنعمان بن المنذر .

(١٦) الإسناد : إسناد الحديث نسبته إلى رواته ، والمراد أن صدقه مشهور بين الناس فهو فى غنى إلى ما يؤكد الحديث المروى عنه .

والمعنى : لقد كان أبو حمزة مثلا أعلى فى رواية الأحاديث ، لما كان =

١٧ — فالعراق بعده للحجازي
قليل الخلاف سهل القياد

١٨ — أنفق العمر ناسكا يطلب العلـ
ـم بكشف عن أصله وانتقاد

١٩ — قد أقر الطبيب عنك بعجز
وتقضى تردد العواد

= يتسم به من الصدق في القول والسيرة الطيبة . ومن ثم فإن الأحاديث التي يرويها لا تحتاج إلى تأكيد ولا تتطلب نسبتها إلى رواتها .

(١٧) القياد : ماتقاد به الدابة من حبل ونحوه . ويقال فلان سلس القياد : أي يتابعك على هواك ، وأعطى فلان القياد أذعن له .

والمعنى : إن أبا حمزة قد هذب الفقه ، وفصل مسائله ، نقل الخلاف فيها بين مذهبيه الكبيرين : مذهب أبي حنيفه في العراق ، ومذهب الشافعي في الحجاز .

(١٨) ناسكا : متعبدا متقشفا ، كشف عن أصله ، بحث عن مصدره إنتقاد ، نقد وتمحيص .

والمعنى : لقد قضى أبو حمزه عمره كله في عبادة الله ، والخضوع له ، وفي طلب العلم ، والاستزادة منه ، وفي البحث عن مصادره الأصيلة ، ونقده وتمحيصه ، وتنقيته وتبويبه .

(١٩) تقضى وإنتهى ، العواد : الزوار المريض ، جمع وعائد .

والمعنى : الطبيب عجز عن مداواته بعد أن أعيته الحيل ، والزوار إنقضى ترددهم له بعد أن فقدوا الأمل في شفائه وتحسن صحته .

٢٠ — وانتهى اليأس منك واستشعر الوجـ
ـد بأن لا معاد حتى المعاد

(٢٠) انتهى اليأس منك : بلغ نهايته ، وجد — وجدا : حزن — الواجد الحزين ، لامعاد : لا زيارة ولا لقاء - المعاد يوم القيامة .

* * *

بالنظر إلى قصيدة أبي العلاء نجد أن شعره حي ، لأنه شعر الفتوة والحرارة المطعم بالتأمل الغنى .

لقد التفت الشاعر إلى معانى الحياة الدمية فى رثائه وذلك عائد إلى أن أبا العلاء - الشاعر المتأمل - تستجيش نفسه هذه المناسبات الحزينة، فيتأمل الحياة فى ضوئها ، فكأنه هنا يرثى الحياة والأحياء ، ولا يرثى أنسانا واحدا، ولهذا كانت قيمة "قصيده كلها فى التفاته إلى هذه المعانى الإنسانية التى تمثلها فى رثائه .

ومن ثم ندرك أثر هذه القصيده فى نفوس قراء المعرى والمعجبين به .

لأن رثاءه عام يمس كل قلب ، فهو رثاء لكل قارىء ، وقد نفذ المعرى من خلاله إلى النفس الإنسانية التى تمثلها نفسه ، فبكاها وبكى حظها وشقوتها، وأحلامها التى تنوء بها ، فكأن المعرى هنا يعرى الحياه ويقف أمامها وجها لوجه .

وقد هدت شفافيه المعرى ، وعمق تأمله، وذكاء احساسه إلى تبين وحده الحياه ، فكأنه يسمع نبض الأرض فى قلبه ، فيلصق كبده بالتراب، يستشعر دفء الحياه فيه ، ويسأل الناس أن يحسنوا وطأه ، ويذكروا حقيقته .

والنص يومىء إلى ثقافة المعرى المتنوعة ، التى عمقت معانيه وجددتها،

ودون أن تذهب بماء الشعر(١).

هذا . وفى القصيده الكثير من الصور البلاغية الجميلة :

فنى البيت الأول - توجد مقابلة حسنة - بين نوح باك ، وترنم شاد . كما أن الأسلوب فى هذا البيت خبرى ، والغرض منه التحسر .

وفى البيت الثانى — تشبيه فقد شبه صوت النعى بصوت البشير ، ووجه الشبه عدم الجدوى فى كل .

وفى قوله : صوت النعى ، وصوت البشير طباق جميل .

وفى البيت الثالث نجد الطباق بين : بكت الحمامة - وغنت - والاستفهام يقصد به التسوية .

وفى البيت الرابع فى قوله أين القبور من عهد عاد - استفهام يقصد به التعجب .

وفى البيت الخامس — فى قوله « خفف الوطء » كناية عن التواضع ، وفى قوله : ما أظن أديم الأرض .. الخ قصر صفه على موصوف والأسلوب فى البيت السادس - وقبيح بنا . . الخ » خبر يقصد به التقرير .

وفى البيت السابع - فى قوله — سر إن اسطعت - أمر قصد به النصح والإرشاد .

وفى البيت الثامن - فى قوله : رب لحد قد صار لحدا مرارا - خبر يقصد به السخرية بالحياه . وفى قوله : ضاحك : استعاره مكنية .

وفى البيت التاسع - فى قوله - ودفين على بقايا دفين خبر يقصد به التحسر .

---

(١) أنظر نصوص مختاره د/ عبد الكريم الأشتر ١٩٥

وفى البيت العاشر : فى قوله ـ تعب كلها الحياه : قصر صفة على موصوف ـ وأيضاً فى قوله : ما أعجب إلا من راغب فى إزدياد : قصر صفة على موصوف ، وطريق الأول التقديم ، وطريق الثانى النفى والاستثناء .

وفى البيت الحادى عشر ـ طباق بين قوله : البقاء ، والنفاد .

وفى البيت الثانى عشر طباق أيضاً بين قوله : شقوة ، ورشاد كذلك فإن قوله : دار أعمال كناية عن الدنيا ، ودار شقوه كناية عن الآخره .

وفى البيت الثالث عشر : يوجد طباق بين : رقده وسهاد ، والموت والعيش .

كما يوجد تشبيه فى قوله : ضجعة الموت رقده : حيث شبه الموت بالنوم ، وأيضاً يوجد تشبيه فى قوله : العيش مثل السهاد .

وفى البيت الرابع عشر ـ فى قوله : قصد الدهر . استعاره مكنية .

وفى قوله : مولى حجا ، كناية عن عقله الراجح ، وقوله خدن اجتهاد كناية عن نسبة الاجتهاد إليه .

وفى البيت الخامس عشر كناية عن تبحره فى علم الفقه .

وفى البيت السادس عشر ـ فى قوله لم يحوج إلى الإسناد كناية عن شهرته بالصدق .

وفى البيت الثامن عشر فى قوله « أنفق العمر » استعاره مكنية .

وفى البيت التاسع عشر : قد أقر الطبيب عنك بعجز .. الخ خبر يقصد به التحسر .

وفى البيت العشرين يوجد جناس تام فى قوله « لا معاد حتى المعاد » حيث يراد بالمعاد الأول : الرجوع ، وبالثانى القيامة .

الجوينى

التعريف بالشاعر :

ولد الحسن الجوينى ببغداد كعبة العلم والأدب فى عصر ازدهر بالتقدم العلمى ، والتذوق الأدبى ، وتاق ثقافته على جهابذه العلماء والأدباء فى عصره فنبغ فى الشعر والكتابة ، وكان الجوينى كثير الترحال بين أرجاء الوطن العربى ، إلى أن استقر به المقام فى مصر ، وعظم شأنه فيها ، وظل بها حتى وافاه الأجل سنة ٥٨٤ هـ .

ومن قوله فى الاشادة ببطولة صلاح الدين ، بعد نصره المظفر على الصليبيين ، واسترداد القدس من أيديهم .

فتح مبين

١ — جند السماء لهذا الملك أعوان
من شك فيه فهذا الفتح برهان

---

١ — جند السماء : المراد بهم : ملائكة السماء ، الملك : الملك بكسر اللام والمراد به صلاح الدين ، أعوان : مساعدون ، برهان : دليل .

والمعنى : لقد جاهد صلاح الدين فى سبيل الله جهاد الأبطال ، وأبلى بلاء حسنا فى الدفاع عن حياض الإسلام ، والذود عن حماه ، ورد غائلة الأعداء عن المقدسات الإسلامية ، وأخلص فى عمله ، فأعانه الله بملائكة من عنده تؤيده وتؤازره ، وما شهده من الانتصارات العظيمة ، والفتوحات العظيمة الكثيرة لخير مصداق على ذلك .

٢ — متى رأى الناس ماتحكيه فى زمن
وقد مضت قبل أزمان وأزمان

٣ — هذى الفتوح فتوح الأنبياء وما
لها سوى الشكر بالأفعال أثمان

فاتح شجاع

٤ — أضحت ملوك الفرنج الصيد فى يده
صيـــدا وما ضعفوا يوما وما هانوا

---

٢ — المعنى : وكان الناس منذ زمن بعيد فى أشوق إلى هذه الفتوحات العظيمة وطال عليهم الأمد ، حتى جاء الله بك قائداً مظفراً ، وحقق النصر على يديك وستروى الأجيال ، ماأندمته لهذه الأمة من أياد سابغة ومجد عظيم .

٣ — المعنى إن هذه الفتوحات العظيمة تشبه فتوح الأنبياء لما لها من أثر عظيم فى تقوية دعائم الإسلام ، ورفع شأنه ، وعلو رايته ، ومن ثم فهى تستحق شكر الله على نصره لنا ، ويجب أن يكون الشكر بالأفعال بأن نستجيب لأوامره ، ونجتنب نواهيه .

٤ — الصيد : جمع أصيد وهو العظيم من ذوى السلطان ، والمتكبر المزهو بنفسه وأضحت : أصبحت ، وماهانوا : ماذلوا وخضعوا .

والمعنى : فى غفلة من الزمن عاث الافرنج فى بلاد المسلمين فسادا ينهبون كبرا بقوتهم ، إلى أن جاء الفاتح البطل صلاح الدين ، فانتصر عليهم انتصاراً ساحقاً ، وأذل كبرياءهم ، وأوقع ملوكهم فى ذل الأسر ، كما يقع الصيد —

٥ — تسعون عاما بلاد الله تصرخ وال
إسلام أنصاره صم وعميـــان

٦ — للناصر ادخرت هذى الفتوح وما
سمت لها همم الأملاك مذ كانوا

٧ — لو أن ذا الفتح فى عصر النبى لقد
تنزلت فيـــه آيات وقرآن

+ فى قبضة صائده وتحت سلطانه ، ورفع راية الإســـلام خفاقة على أرجاء البلاد الإسلامية .

٥ — تصرخ : تستغيث ، صم : لايسمعون ،

والمعنى : لقد ظلت بلاد المسلمين تحت قبضة الصليبين، وخاضعة لسطوتهم تسعين عاما ، وهى تستغيث بحكامها وتستثير حمية أبطالهـــا ، ولكنهم لم يستجيبوا الصراخها ولم يهبوا لنجدتها ، وكأنهم صم لايسمعون، عمى لايبصرون

٦ — للناصر : المراد صلاح الدين، سمت : علت ، وتطلعت وارتفعت همم : عزائم ، الأملاك : الملوك .

والمعنى : لقد ادخر الله هذه الانتصارات وتلك الفتوح للناصر صلاح الدين ، وقد تقاصرت عنها همم الملوك من قبله ، ولم ترق إليها آمالهم

٧ — والمعنى : أن هذا الفتح العظيم الذى حققته من طرد الغاصبين لديار الاسلام ، ورفع الظـــلم والطغيان عن كاهل الشعوب الاسلامية وتحرير القدس الشريف من تلك الفئة الباغية — أمر عظيم لو تم فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم لنزلت فيه آيات من القرآن الكريم تشيد به وتباركه .

دعاء وتضرع

٨ — فالله يبقيك للاســـلام تحرسه
من أن يضام ويلفى وهو حيران

٩ — إذا طوى الله ديوان العباد فمـــا
يطوى لأجر صـــلاح الدين ديوان

---

٨ — يضام: الضيم أو الاذلال ونحوه ، يلفى : يوجد ، حيران :لايجد منفذا

والمعنى : أبقاك الله ياصلاح الدين ، ذخرا للاسلام والمسلمين ولتحفظ للاسلام عزته ، وقوته ومنعته ، لايعتريه ضعف ، ولا تنتابه حيرة بدفاعك عنه ، والذود عن حياضه .

٩ — طوى : أهلك وأباد ـ ديوان العباد : السجل الذى تدون فيه أعمال الناس وأجورهم .

والمعنى : إن الانتصارات العظيمة ، والفتوحات الكثيرة ، التى حققها الله على يديك ، لتضاعف لك الأجر والثواب ، وإذا كانت حسنات الناس تنتهى بوفاتهم ورحيلهم عن هذه الحيـــاة ، فإن حسناتك ان تنقطع ، لأن روافدها الطيبة باقية بقاء الحياة تمدك بالخير الكثير ، والثواب الجزيل

لقد أجاد الشاعر ببيانه الرائع ، وأسلوبه الآخاذ ، وعباراته المشرقة فى وصف قدسية المعركة التى خاضها صلاح الدين القائد المظفر وما كان يتحمل به من عظيم الاخلاص ، وقوة الإرادة ، ونبل الهدف .

ومن ثم فقد أعانه الله ، وشد من أزره ، وقوى من عضده ، وأمده

بملائكته الكرام ، وقد أدخر الله هذا الفتح العظيم ليكون تقديرا بمكانته السامية ومنزلته العالية ، وهو جدير بأن نرفع إلى الله أكفنا داعين له بالسداد والتوفيق وأن يجزيه عن الاسلام وأهله الثواب الجزيل ، جزاء ماقدم من عظيم وفتح مبين .

هذا وفي النص الكثير من الصور البلاغية الرفيعة .

ففي قوله – في البيت الأول – جند السماء : كناية عن موصوف هو الملائكة

وفي البيت الثاني – في قوله – متى رأى الناس ماتحكيه في زمن – أستفهام يقصد به النفي . وفي قوله : أزمان وأزمان تكرار لافادة طول المدة

وفي قوله – في البيت الثالث – هذى الفتوح فتوح الأنبياء تشبيه ، المشبه فتوح صلاح الدين ، والمشبه به فتوح الأنبياء . ووجه الشبه العظمة والجلال والخير الكثير وفي قوله : مالها أثمان كناية عن علو شأنها

وفي البيت الرابع – جناس ناقص في قوله : الصيد ، وصيدا

وفيه أيضا تشبيه حيث شبه ملوك الفرنج بالصيد ووجه الشبه الضعف وقلة الحيلة

وفي البيت الخامس : استعارة مكنية في قوله : بلاد الله تصرخ حيث شبه البلاد بإنسان ، ثم حذف المشبه به وجاء بشيء من لوازمه وهو تصرخ والقرينة إسناد تصرخ إلى البلاد . وفيه أيضا تشبيه

وفي (بلاد الله تصرخ) أيضا قصر طريقه التقديم ، قصر صفة على موصوف

وفي البيت السادس : استعارة مكنية في قوله : ادخرت هذى الفتوح حيث شبه الفتوح بشيء نفيس يدخر ، ثم حذف المشبه به وجاء بلازم من لوازمه وهو : ادخرت . وإسناده ادخرت إلى هذى الفتوح قرينة الاستعارة

وأيضا في قوله : للناصر ادخرت هذى الفتوح . قصر طريقه التقديم من قصر الصفة على الموصوف

والبيت السابع كناية عن عظمة وروعة هذا الفتح :

وفى البيت الثامن استعارة مكنية فى قوله ـ من أن يضام ـ حيث شبه الاسلام بإنسان ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشىء من لوازمه

وفى البيت التاسع فى قوله فما يطوى لأجر صلاح الدين ديوان ـ كناية دواب الثواب والجزاء

وفى قوله ـ طوى ، وما يطوى : طباق سلب

من روائع النثر العباسى

ابن المقفع

التعريف بالكاتب :

هو أبو محمد عبد الله بن المقفع(١) أحد فحول البلاغة المبرزين ، وأعلام الأدب الخالدين ، وبلغاء الكتاب الأولين ، وقرين عبد الحميد الكاتب في فن الرسائل .

نشأ بالبصرة ، وهي يومئذ حلبة العرب « ومنتدى البلغاء والخطباء والشعراء فكان لكل ذلك ، فوق ذكائه المفرط ، وتأديب أبيه له ، أعظم أثر في تربيته وتهيئته لأن يصير من أكبر كتاب العربية ، وعلمائها وأدبائها والمترجمين إليها ، أسلم بمحضر من الناس ، وسمى « عبد الله » وكنى بأبي محمد .

وكان ابن المقفع نادرة في الذكاء ، غاية في جميع علوم اللغة والحكمة ، وتاريخ الفرس متأدبا متعففا ، قليل الاختلاط ، إلا بمن على شاكلته ، كثير الوفاء لأصحابه .

كما كان — أيضا — أمة في البلاغة ، ورصانة القول ، وشرف المعانى إلى بيان غرض وسهولة لفظ ، ورشاقة أسلوب ، ولا توصف بلاغته بأحسن مما وصف هو البلاغة حيث يقول « هي التي إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها » .

---

(١) لقب بابن المقفع لأن أباه كان يعمل في جمع الخراج ، واختلس بعض الأموال فضرب على يديه حتى تفقعتا أي تشنجتا .

وقوله لأحد الكتاب : « إياك والتتبع لوحشى الكلام ، طمعا فى نيل البلاغة ، فإن ذلك هو العى الأكبر » .

وقوله لآخر : « عليك بما سهل من الألفـــاظ مع التجنب لألفاظ السفلة » .

وقد ترجم كتبا عديدة من أشهرها كتاب « كليله ودمنه » وقيل إن هذا الكتاب من وضع ابن المقفع ، وله « الأدب الكبير » و « الأدب الصغير » و « الدرة اليتيمة » وقد مات مقتولا سنة ١٤٢ هـ(١) .

ومن قوله فى « الأدب الكبير » فى معاملة الصديق :

« ابذل لصديقك دمك ومالك ، ولمعرفتك رفدك ومحضرك(٢) وللعامة بشرك وتحننك ، ولعدوك عدلك وإنصافك ، واضنن بدينك وعرضك عن كل أحد .

إن سمعت من صاحبك كلاما أو رأيا يعجبك ، فلا تنتحله تزينا به عند الناس ، واكتف من التزين ، بأن تجتنى الصواب إذا سمعته ، وتنسبه إلى صاحبه ، واعلم أن انتحالك ذلك مسخطة(٣) لصاحبك ، وأن فيه — مع ذلك — عارا أو سخفا ، فإن بلغ ذلك بك أن تشير برأى الرجل وتتكلم بكلامه ، وهو يسمع جمعت — مع الظلم — قلة الحياء ، وهذا من سوء الأدب الفاشى فى الناس .

---

(١) انظر العصر العباسى الأول د/ شوقى ضيف ٥٢٢ ، وجواهر الأدب جـ ٢ ١٦٤

(٢) الرفد : العطاء ، والمحضر : الحضور ، يعنى أن تلتفت إليه التفاتا كاملا .

(٣) المسخطة : السخط

ولا يكونن من خلقك أن تبتدىء حديثاً ثم تقطعه ، وتقول سوف كأنك روأت(١) بعد ابتدائه ، وليكن ترويك فيه قبل التفوه فإن احتجان الحديث(٢) — بعد افتتاحه — سخف وغم .

واخزن عقلك وكلامك إلا عند اصابة الموضع ، فإنه ليس فى كل حين يحسن كل الصواب ، وإنما تمام اصابة الرأى والقول بإصابة الموضع ، فإن أخطأك ذلك أدخلت المحنة على علمك ، حتى تأتى به إن أتيت فى موضعه وهو لابهاء له ولا طلاوة .

وليعرف العلماء — حين تجالسهم — أنك على أن تسمع أحرص منك على أن تقول :

ولا تخلطن بالجد هزلا ، ولا بالهزل جدا ، فإنك إن خلطت بالجد هزلا هجنته . وإن خلطت بالهزل جدا كدرته ، غير أنى قد علمت موطنا واحدا ، إن قدرت أن تستقبل فيه الجد بالهزل ، أصبت الرأى وظهرت على الأقران ، وذلك أن يتـــوردك متورد بالسفه(٣) ، والغضب وسوء اللفظ .

فتجيبه إجابة الهازل المداعب ، برحب من الذرع(٤) ، وطلاقة من الوجه وثبات من المنطق .

---

(١) روأ فى الأمر : نظر فيه وتدبره ، وخفف همزها فصارت : روى ومنه الروية .

(٢) احتجن الشىء : ضمه إلى نفسه وأمسكه .

(٣) تورده : سأله الورود . والسفه الجهل .

(٤) الرحب : السعة ، وذرع الثوب : قاسه بالذراع ، والذرع بسط اليد ، وسعة الذرع كناية عن الاقتدار والحلم .

وإن رأيت صاحبك مع عدوك فلا يغضبنك ذلك ، فإنما هو أحد رجلين : إن كان رجلا من أخوان الثقة ، فأنفع مواطنه لك أقربها من عدوك لشر يكفه عنك ، وعورة يسترها منك، وغائبة يطلع عليها لك(١) .

فأما صديقك فما أغناك أن يحضره ذو ثقتك ، وإن كان رجلا من غير خاصة إخوانك ، فبأى حـــق تقطعه عن الناس، وتكلفه ألا يصاحب ولا يجالس إلا من تهوى :

ولا تكثرن إدعاء العلم فى كل مايعرض ، بينك وبين أصحابك ، فإنك من ذلك بين فضيحتين : إما أن ينازعوك فيما أدعيت ، فيهجم منك على الجهالة والسخف والصلف ، وإما ألا ينازعوك ، ويخلوا الأمور فى يدك فينكشف منك التصنع والمعجزة (٢) .

واستحى الحياء كله من أن تخبر صاحبك أنك عالم، وأنه جاهل ، مصرحا أو معرضا :

وأن استطلت على الأكفاء ، فلا تثقن منهم بالصفاء .

وإن آنست من نفسك فضلا ، فتطلع منك على أن تذكره ، أو تبديه ، فاعلم أن ظهوره منك بذلك الوجه يقرر لك — فى قلوب الناس — من العيب أكثر مما يقرر لك من الفضل.

واعلم أنك إن صبرت ، ولم تعجل ظهر ذلك بالوجه الجميل الحسن المعروف عند الناس :

ولا يخفين عليك أن حرص الرجل على إظهار ماعنده ، وقلة وقاره فى ذلك باب من أبواب البخل واللؤم وإن من خير الأعوان على ذلك السخاء والتكرم

---

(١) أى يطلع على ماستره عدوك عنك ، فيطلعك عليه .

(٢) المعجزه بفتح الميم العجز .

وضح لنا ابن المقفع مايجب على الانسان نحو صديقه من العطف والرحمة ونحو عدوه من العدل والانصاف ، ونحو دينه وعرضه بالحفاظ عليهما ، والضن بهما .

وحذر من انتحال كلام الصديق وآرائه ، فإن فى ذلك عارا وسخفا ، إذا كان فى غيبته ، وقلة حياء وسوء أدب إذا كان فى حضوره .

ونبه إلى التروى فى الحديث قبل إبدائه حتى يكون الإنسان على بينة من أمره وعلى بصيرة من حاله ، حتى لاتزل قدمه ، وينزلق لسانه فى أمر محظور ، فيندم ولات ساعة مندم

كما نبه إلى اختيار الكلام المطابق لمقتضى الحال لأن إصابة الرأى والقول تكون بإصابة الموضع

وإذا جلس الانسان مع العلماء ، فليكن حرصه على الاستماع أكثر من حرصه على الكلام .

وحذر ابن المقفع من خلط الجد بالهزل ، لأن فى ذلك تقبيحه ، كما حذر من خلط الهزل بالجد لما فيه من تكدير لاترتاح له النفس ، ولايسر له القلب ولا يطيب له الخاطر . واستثنى ابن المقفع حالة ينبغى فيها خلط الجد بالهزل وهى ملاقاة السفهاء ، فإن الحكمة الرشيدة تقتضى طلاقة الوجه وحسن العبارة .

وذكر أنه لاضير من جلوس الصديق مع العدو ، لأنه إن كان ذا ثقة ، فمن هذا الجلوس ، يستطيع أن يستشف منه أمورا كانت خافية عليك وفى ذلك نفع عظيم لك ، وإن كان الصديق دون ذلك فليس من حقك أن تمنعه عن مجالسة من يهوى .

كذلك . فقد حذر من ادعاء العلم ، لأن عاقبته وخيمة ، كما حذر من

الاستطالة على الرجال الأكفاء لأنه يؤدى إلى احتقارهم له ، واشمئزازهم منه ، وعدم اطمئنانهم إليه .

و نهض فى ادعاء الفضل أو محاولة اعلانه ، فإنه فى ذلك منقصة له .

وبين أن خير طريق لاظهار الفضل عدم الجهر به ، لأن الأيام كفيلة بإظهاره فى ثوب قشيب ، وحلة زاهية ، وبذلك ينال صاحب الفضل حب الناس واحترامهم وتقديرهم .

وأخيرا دعا إلى التحلى بالسخاء والتكرم فهما من خير الأعوان لمن ينشد المنزلة الرفيعة ، والدرجة العالية ، مصداقا لقول الشاعر .

يبذل وحلم ساد فى قومه الفتى وكونك إياه عليك يسير

هذا . ومن قراءة النص يتضح أسلوب ابن المقفع الرصين ، الذى يجمع بين شرف المعنى ، وجمال اللفظ ، فأسلوبه مترسل ، وعبارته متحررة ، لا تعتمد على السجع وما جاء من ذلك فى كلامه ، فقد جاء عفوا وليد العاطفة ، فهو يخدم المعنى ، ومن ثم فقد حسن فى موضعه لأن المقام قد استدعاه ، والحال قد اقتضاه .

ومن السجع الحسن فى النص قوله : ابذل لصديقك دمك ومالك ، ولمعرفتك رفدك ومحضرك ، وللعامة بشرك وتحننك ، ولعدوك عدلك وانصافك ومن الطباق الحسن أيضا قوله : ابذل ، واضنن .

وقد جاءت صيغ النهى والأمر فى النص للنصح والارشاد من ذلك قوله لا يكونن من خلقك ، ولا تخلطن بالجد هزلا ، ولا تكثرن ادعاء العلم .

ومن صيغ الأمر قوله : اخزن عقلك وكلامك ، وابذل لصديقك دمك ومالك .

الجاحظ

في وصف الكتاب

التعريف به :

هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب ، وسمى بالجاحظ ، لجحوظ عينيه .

ولد بالبصرة ، سنة ١٦٠ هـ ، وتوفى أبوه وهو طفل ، وتعلم فى أحد كتاتيب البصرة ، وتطلعت نفسه العالية إلى العلوم المختلفة ودفعه ذكاؤه إلى الاشتغال بها ، فتلقى الفصاحة شفاها من العرب فى البادية ، وأقبل على العلم يرتشف من ينابيعه ، ويقرأ كل ما يصل إلى يده من كتب ، ويعى ما يقرأ ، واتصل بعلماء الدين والأدب الذين كان عصره يزدهر بهم كالأصمعى ، وأبى يوسف صاحب أبى حنيفة .

وقد ساعد على نبوغه ، ذكاؤه النافذ ، وذاكرته الواعيه إلى جانب نشأته بالبصره ميدان العلماء من كل علم وفن ، وثقافته الدينية والعربية ، وتجاربه الواسعة فقد درس الحيوانات ، والنباتات ، كما خالط الصناع والكرماء والبخلاء ، والأغنياء والفقراء ، كذلك جالس الشعراء والأدباء ونادم الملوك والوزراء .

ومن ثم فقد كان غريب الأطوار يجمع بين الجد والفكاهه ، حاضر النكتة ، كريم الأخلاق سخيا ، سمحا خفيف الروح ، وكان على ما به من دمامة وجحوظ فى غاية من الظارف وحلاوة اللفظ ، وجمال الأسلوب ، وسحر البيان مما جعله أحد قادة الفكر والأدب الذين طبقت شهرتهم الآفاق .
وقال عنه المؤرخون « لم يكن فى زمانه من هو اغزر منه علما ، ولا أنفع أدبا ولا أوسع اطلاعا ، ولا أكثر تصنيفا ، ولا ألطف بحثا ، ولا أطيب

فكاهة ، وحسبنا شهادة ابن العميد له بالتفوق حيث قال : « كتب الجاحظ تعلم العقل أولا ، والأدب ثانيا » . توفى سنة ٢٥٥ هـ .

وإليك بعض ما قاله فى وصف الكتاب :

« . . . والكتاب هو الجليس الذى لا يطريك(١) والصديق الذى لا يقليك(٢) ، والرفيق الذى لا يملك(٣) والمستميح الذى لا يستزيدك(٤) والجار الذى لا يستبطئك ، والصاحب الذى لا يريد استخراج ما عندك بالملق(٥) ، ولا يعاملك بالمكر ، ولا يخدعك بالنفاق .

والكتاب هو الذى إن نظرت فيه أطال امتاعك(٦) وشحذ(٧) طباعك ، وبسط(٨) لسانك ، وجود بيانك(٩) وفخم(١٠) ألفاظك وبجح(١١) نفسك ، وعمر(١٢) صدرك ، ومنحك تعظيم العوام(١٣) وصداقة الملوك .

يطيعك بالليل طاعته بالنهار ، وفى السفر طاعته فى الحضر(١٤) وهو المعلم الذى ان افتقرت إليه لم يحقرك ، وإن قطعت عنه المادة(١٥) لم يقطع عنك الفائدة . وإن عزلت(١٦) لم يدع طاعتك ، وإن هبت(١٧) ريح أعدائك لم ينقلب عليك ، ومتى كنت متعلقا به ومتصلا منه بأدنى حبل(١٨) لم تضطرك معه وحشة الوحدة إلى جليس السوء .

---

(١) لا يمدحك . (٢) لا يهجرك ولا يبغضك . (٣) لا يسئمك .
(٤) لا يطلب زيادة . (٥) الرياء . (٦) نفعك وتمتعك .
(٧) جعلها سليمة حادة . (٨) أطلق . (٩) قواك .
(١٠) عظم . (١١) فرح . (١٢) ملأه علما .
(١٣) عامة الناس . (١٤) الاقامة . (١٥) الأجر الذى تمده به .
(١٦) فصلت من عملك . (١٧) أى ثار عليك أعداؤك .
(١٨) متصلا بأقل صلة .

يرى الجاحظ أن الكتاب خير جليس ، يتحلى بالاخلاص ، فهو لا يمدح ولا يبغض ، ولا يشتم ، ولا تجد فيه ملقا ، ولا مكرا ولا نفاقا .

وفى الجلوس إليه تجدد المتعة ، كما تفيد قوة التعبير ، وجمال اللفظ ، فتعلو منزلتك بين العامة والخاصة .

كما أنه خير رفيق ، لا يعصى لك أمرا فى السفر والحضر ولا يهمل شأنك إذا أصابك الفقر ، كما لا يتغير صورته إذا عزلت من عملك ، أو غضب عليك أعداؤك .

والكتاب لذلك يعتبر خير أنيس يغنيك عن جليس السوء .

* * *

هذا ومن النص تتضح طريقة الجاحظ فى الكتابة التى تعتمد على جمال اللفظ ، وبهاء المعنى ، مع العناية بالمحسنات البديعية دون تكلف ، والاكثار من التكرار الذى يوضح به المعنى سواء أكان بتكرار المفردات المترادفة ، أم بتكرار المعانى بعبارات مختلفة ، إلى جانب الاستشهاد بالقرآن الكريم ، والحديث الشريف . كما تتجمل بثوب الناقد الاجتماعى الذى لا يروقه اضاعه الوقت الثمين فيما لا يجدى نفعا .

والمحسنات البديعيه جلية فى النص كالطباق فى قوله « السفر والحضر ، والليل والنهار . والسجع فى قوله « شحذ طباعك وبسط لسانك ، وجود بيانك ، وفخم ألفاظك .

إلى جانب صور بلاغية أخرى . كالتشبيه فى قوله هو الجليس وهو الصديق والرفيق ، والمستميح والصاحب ووجه الشبه النفع العظيم فى كل .

ابن العميد

رسالة إلى أبي عبد الله الطبرى

التعريف بالكاتب :

هو الأستاذ الوزير أبو الفضل محمد بن الحسين بن العميد فارس الأصل ، وانتسب إلى أسرة معروفة بمدينة « قم » احدى مدن فارس .

كان أبوه أديبا مترسلا ، فنشأ ابنه محبا للعلوم ، ميالا للقراءة ، واقتفاء أثر الأدباء ، حتى نبغ في العلم والأدب نبوغا لفت الأنظار .

واتصل بآل بويه ، وساعدهم على تأسيس دولتهم وصار وزير الركن الدوله أبي على بن بويه .

واشتهر ابن العميد بحسن الرأى والتدبير ، فساس الدولة سياسة رشيدة ووطد أركانها .

وكان العلماء والأدباء يفدون إليه فيكرم وفادتهم ، وقد مدحه كثير منهم كالمتنبي ، والصاحب بن عباد . وتوفى سنة ٣٦٠ ﻫ .

مناسبة الرساله :

كان ابن العميد قد تلقى رسالة من صديقه أبي عبد الله الطبرى ، فكتب إليه هذه الرسالة ردا على رسالته ، وفيها يصور شعوره وعواطفه نحو صديقه ، والرسالة نموذج طيب للرسائل الاخوانية .

١ — أثر الشوق فى نفس ابن العميد :

كتابي إليك ، وأنا بحال لو لم ينغصها الشوق إليك ولم يرنق(١) صفوها النزوع(٢) نحوك ، لعددتها من الأحوال الجميلة ، وأعددت حظى منها فى النعم الجليلة ، فقد جمعت فيها بين سلامه عامه ، ونعمه تامه ، وحظيت(٣) منها فى جسمى بصلاح ، وفى سعيى بنجاح .

ولكن ما بقى أن يصفو لى عيش مع بعدى عنك ، ويخلو ذرعى(٤) مع خلوى منك ، ويسوغ(٥) لى مطعم ومشرب مع إنفرادى دونك ، وكيف أطمع فى ذلك وأنت جزء من نفسى ، وناظم لشمل(٦) أنسى ، وقد حرمت رؤيتك ، وعدمت مشاهدتك ؟ وهل تسكن نفس متشعبه ذات إنقسام(٧) وينفع أنس بيت بلا نظام ؟

---

(١) لم يرنق : لم يكدر .

(٢) النزوع نحوك . الميل إليك .

(٣) حظيت منها : ظفرت .

(٤) يخلو ذرعى : ذرعى : يفرغ قلبى من الهموم

(٥) يسوغ : يطيب .

(٦) ناظم : جامع ، وشمل أنس : الشمل ما اجتمع من الأمر .

(٧) يريد : أن نفس لا تسكن وهى مجزأة ، جزء عندك ، والآخر عندى .

٢ — ما تركته رسالة الطبرى من أثر فى وجدانه :

وقد قرأت كتابك ، جعلنى الله فداءك ، فامتلأت سرورا بملاحظة خطك ، وتأمل تصرفك (١) ، وما أقرظهما (٢) ، فكل خصالك مقرظ عندى ، وما أمدحهما ، فكل أمرك ممدوح فى ضميرى وعقدى (٣) ، وأرجو أن تكون حقيقة أمرك موافقه لتقديرى فيك ، فإن كان كذلك (٤) وإلا فقد غطى هواك وما ألقى على بصرى (٥) .

ذكر ابن العميد فى رسالته ، أنه وإن كان يتمتع بوفرة النعم وسلامة البدن ، ونجاح العمل ، فإنه غير سعيد لبعد صديقه الذى هو جزء من نفسه ومادام بعيدا عنه ، فلن يصفو له عيش ، ولن يهدأ له بال ، وسيظل فى قلق وانشغال ، لايجد للطعام والشراب لذة ، ولا للنعيم والصحة مذاقا .

ثم تحدث عن كتاب صديقه ، وذكر سروره لرؤية خطه الجميل ، وسعادته ببلاغة أسلوبه الأخاذ ، وذكر أنهما غنيان عن الثناء ، فكل صفات صديقه محل تقدير وأعجاب .

ورجاء أن تكون جميع خلال صديقه — كما يعتقد — جميلة رائعة وإذا كانت غير ذلك فرده إلى حبه الجم الذى حجب عنه عيوبه وجعله لايرى إلا محاسنه وفضائله ،

---

(١) تصرفك : تفننك فى أساليب التعبير .
(٢) أقرظهما أمدحهما .
(٣) عقدى : اعتقادى ورأيى .
(٤) إن كان كذلك : أى : إذا كانت خصالك جميلة كما أعتقد .
(٥) يريد : أن حبى لك هو الذى ستر عنى عيوبك .

طريقة ابن العميد :

وفى الرسالة يتجلى خصائص أسلوب ابن العميد ، وطريقته فى الكتابة التى تعتمد على العناية بالمحسنات البديعية كالسجع فى قوله : « حظيت منها فى جسمى بصلاح ، وفى سعيى بنجاح » .

والجناس الناقص بين « جميلة ، وجليلة ، وبين عامة ، وتامة » .

والموازنة بين الجمل طولا وقصرا ، كقوله « وهل تسكن نفس متشعبة ذات انقسام » ويتفع أنس بيت بلا نظام ، وقد قرأت كتابك ، جعلنى الله فداءك » .

والميل إلى الاطناب بالاكثار من الجمل والترادفة كقوله ، وقد حرمت رؤيتك ، وعدمت مشاهدتك .

والاقتباس من القرآن الكريم ، والسنة النبوية الشريفة . وتضمين كتابه الكثير من الحكمة العالية ، والأمثال السائرة .

هذا إلى جانب أنه كان يعنى بالالفاظ ، مع الحفاظ على المعانى ويخاطب العقل ، ولاينسى الوجدان ، فجاءت معانيه مترابط متماسكة محكمة النظم والترتيب .

وقد حاكاه فى كتابته وطريقته كثير من الأدباء المعاصرين له ، وساروا على نهجه ، لولوعهم بالصناعة فى ذلك الوقت .

حتى قال الأدباء « بدئت الكتابة بعبد الحميد ، وختمت بابن العميد » بيد أن طريقته قد أثرت فيمن جاء بعده من الأدباء فى العصور الأخرى ، الذين حاولوا أن يقلدوه . وكانت ثقافتهم محدودة ، وطبعهم دون طبعه ، فجاءت كتابتهم تهتم بالمظهر دون الجوهر ، وباللفظ دون المعنى ، وبالشكل دون المضمون .

هذا وفى النص الكثير من الصور البلاغية ، فالى جانب ما أشرنا إليه من المحسنات البديعية فإننا نجد التشبيه البليغ فى قوله « وأنت جزء من نفسى » أى كالجزء ، والاستعارة المكنية فى قوله « يرنق صفوها النزوع نحوك » حيث شبه حالته ، وقد كدرها ميله إلى رؤية صديقه بورد الماء الذى يتكدر نتيجة ورود الوافدين عليه ، ثم حذف المشبه به ، وأبقى فى الكلام ما يدل عليه وهو « يرنق صفوها » .

كما نجد الكناية عن صفة فى قوله « بخلو ذرعى مع خلوى منك » فهى كناية عن عدم فراغة من الهموم .

منزلته الأدبية :

وقبل أن نودع ابن العميد ينبغى أن نشيد بمكانته الأدبية التى اكتسبها بوراثته وموهبته ، وبواسع ثقافته وعمق فهمه إلى جانب ذكائه المتقد ، وخياله الخصب ، مما جعله يحمل الراية ، ويقود جيلا جديدا إلى فن جديد فى الكتابة ، وكان جديرا أن يلقب بالأستاذ والرئيس ، والجاحظ الثانى .

كما تتلمذ له أساتذة الديوان فى كل مكان ، ومن أتباعه الصاحب عباد وقد شهد شهادة حفظها له الأدب ، فقد سأله ابن العميد عن بغداد منصرفه عنها فقال الصاحب « بغداد فى البلاد كالأستاذ فى العباد » .

الحريرى

فى مقامته المروية

التعريف بالحريرى :

هو أبو محمد القاسم بن محمد بن عثمان الحريرى البصرى المولود سنة ٤٤٦ هـ الكاتب الشاعر اللغوى النحوى، صاحب البدائع المأثورة، فى مقاماته المشهورة، أتى فيها على كثير من مواد اللغة، وفنون الأدب، وأمثال العرب وحكمها، بعبارة مسجعة مزينة بأنواع البديع، ولاسيما الجناس، ترغيباً للطلاب فى حفظ اللغة وأدبها، وتفكيها لهم بمطالعتها، ونحل وقائعها «أبازيد السروجى»، وهو أعرابى فصيح من سروج، وسمى راويها عنه «الحارث بن همام»، ويعنى به نفسه إشارة إلى الحديث القائل «كلكم حارث، وكلكم همام»، فالحارث الكاسب، والهمام الكثير الاهتمام، وما من شخص إلا وهو حارث وهمام.

وقد أهدى الحريرى مقاماته إلى الوزير جمال الدين بن صدقة. وزير المسترشد العباسى، وله غير المقامات شعر كثير ورسائل بديعة، وكتب فى النحو واللغة منها «درة الغواص، فى أوهام الخواص» و «ملحة الإعراب» و «ديوان رسائل»، وتوفى بالبصرة سنة ٥٢٢ هـ.

والمقامة : عبارة عن كتابة حسنة التأليف، أنيقة التصنيف تتضمن نكتة أدبية، ومدارها على رواية لطيفة تسند إلى بعض الرواة «ووقائع شتى تعزى إلى أحد الأدباء، والمقصود منها غالبا : جمع درر وغرر البيان، وشوارد اللغة ونوادر الكلام، منظوم ومنثور، فضلا عن ذكر الفرائد البديعية والرقائق الأدبية.

والمقامات تعرف بالمكان الذى تجرى فيه ، فيقال المقامة الحلبية ، أو الموصلية بناء على أن محل وقوعها حلب أو الموصل ، وربما نسبت إلى المروى عنه ويستحسن فى راوى المقامة أن يمثل جلا ظريف النفس ، كثير الأسفار ، حسن الرواية ، متفرغا لفنون الأدب، جادا فى طلب غرره كادا ذهنه فى تحصيل درره كالحارث بن همام فى المقامات الحريرية ، وعيسى ابن هشام فى المقامات البديعية :

ومخترع هذا الفن هو بديع الزمان الهمذانى وبعده الحريرى ، واشتهر بعدهما كثيرون ممن نسجوا المقامات على منوالهما ، وإن لم يبلغوا شأوهما(١) .

ومن مقامات الحريرى المقامة المروية التى إليك طرفا منها : حكى الحارث ابن همام قال :

حبب إلى مذ سمعت قدمى ، ونفث قلمى(٢) أن أتخذ الأدب شرعة(٣) ، والاقتباس منه نجعة (٤) فكنت أنقب عن أخباره وخزنه أسراره (٥) فإذا ألفيت منهم بغيه الملتمس، وجذوة المقتبس (٦) .

---

(١) انظر جواهر الأدب جـ١ ٣٨١ ، جـ٢ ١٧٥ والأدب العربى وتاريخه : ٦٥ — ٧٠

(٢) نفث قلمى : كناية عن تعلمه الكتابه والخط .

(٣) شرعة : طريقة وعادة .

(٤) الأصل فى النجعة طلب الكلأ والمراد هنا : منتجعا ومطلبا .

(٥) الخزنه : أهل المعرفة .

(٦) الجذوة مثلثة الجيم : شعلة من النار ، والعبارة كناية عمن يؤخذ عنه الأدب .

شددت يدى بغرزه «١» واستنزلت منه زكاة كنزه ، على أنى لم ألق كالسروجى فى غزارة السحب ، ووضع الهناء مواضع النقب «٢» إلا أنه كان أسير من المثل ، وأسرع من القمر فى النقل «٣» وكنت لهوى ملاقاته واستحسان مقاماته أغرب فى الاغتراب ، واستعذب السفر الذى هو قطعة من العذاب «٤» .

فلما تطوحت إلى مرو «٥» ولا غرو ، بشرنى بملقاه زجر الطير ، والفال الذى هو بريد الخير ، فلم أزل أنشده فى المحافل «٦» وعند تلقى القوافل «٧» فلا أجد عنه مخبرا ، ولا أرى له أثرا ولا عثيرا «٨» ، حتى غلب اليأس الطمع ، وانزوى التأميل وانقمع ، فإنى لذات يوم بحضرة والى مرو ، وكان ممن جمع الفضل والسرو «٩» ، إذ طلع أبو زيد فى خلق

«١» الغرز للبعير بمنزلة الركاب للفرس ، والمراد أننى تمسكت بركابه .

«٢» الهناء بكسر الهاء : القطران ، والنقب جمع نقبه ، وهى أول مايبدو من الجرب .

«٣» جمع نقلة : اسم من الإنتقال ، ويروى بالفاء ، وهى ثلاث ليالى من الشهر الرابعة والخامسة والسادسة ، لأن القمر فيها سريع المغيب .

«٤» حديث رواة مالك ، السفر قطعة من العذاب .

«٥» مرو : بلد بالعراق من بلاد خراسان .

«٦» المحافل : جمع محفل وهو مجتمع القوم

«٧» أى استقبال المسافرين .

«٨» العثير : كثرة الغبار ،

«٩» السرو : السيادة .

علاق «١» وخلق ملاق «٢» . فحيا الوالي تحية المحتاج إذا لقى رب التاج ثم قال له :

أسلم وقيت الذم ، وكفيت الهم أن من عذقت «٣» به الأعمال أعلقت «٤» به الآمال ، ومن رفعت له الدرجات ، رفعت إليه الحاجات وأن السعيد من إذا قدر ، وواتاه القدر ، أدى زكاة النعم ، كما يؤدى زكاة النعم «٥» . والتزام لأهل الحرم ، مايلزم للأهل والحرم «٦» .

وقد أصبحت بحمد الله عميد مصرك ، وعماد عصرك ، تزجى الركائب إلى حرمك «٧» ، وترجى الرغائب من كرمك «٨» ، وتنزل المطالب بساحتك

«١» الخلق بفتح الخاء : الثوب البالي ، والمملاق : الشديد الفقر .

«٢» الخلق بضم الخاء واللام : الطبع والسجية ، والملاق كثير الملق وهو المنافق .

«٣» عذقت به الأعمال : نيطت به الأعمال وتعلقت :

«٤» أعلقت : تعلقت به الآمال ، وكأنه مستفاد من قول المصطفى صلوات الله وسلامه عليه من اتصلت نعم الله عليه كثرت حوائج الناس إليه .

«٥» النعم بالكسر : جمع نعمة . وبالفتح واحد الأنعام ، وهي الابل والبقر والغنم وأكثر ما يقع هذا الاسم على الابل .

«٦» الحرم : بضم الحاء وفتح الراء : جمع حرمة بمعنى الاحترام ، والحرم بفتحهما واحد المحارم وهم من يحرم المصاهرة بينهم بسبب النسب أو الرضاع .

«٧» تزجى الركائب . تساق الابل .

(٨) ترجى الرغائب من كرمك : الرغائب جمع رغيبة ، وهي العطاء الكثير ، وترجى تؤمل :

وتستنزل الراحة من احتك ، وكان فضل الله عليك عظيما ، وأحسانه لديك عميما ، ثم إنى شيخ تراب بعد الاتراب (١) وعدم الاعشاب (٢) حين شاب . قصدتك من محلة نازحة ، وحالة رازحة ، آمل من بحرك دفعة ، ومن جاهك رفعة ، والتأميــــل أفضل وسائل السائل ، ونائل النائل فأوجب لى مايجب عليك ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، وإياك أن تلوى عذارك عمق أزدارك (٣) أو تقبض راحك عن امتاحك ، وامتار سماحك ، فو الله ماجد من جمد (٤) ولارشد من حشد (٥) ، بل اللبيب من إذا وجد جاد ، وإن بدأ بعائدة عاد ، والكريم من إذا استوهب الذهب لم يهب أن يهب (٦) .

هذا وواضح فى أســــلوب المقامة العناية بالصناعة اللفظية ، مع اختيار بعض الغريب من الألفاظ ، كما يلتزم فى أسلوبها بالسجع غالبا كقوله :

---

(١) تراب بعد الاتراب : أى افتقر ، وألصقت يده بالـــتراب بعد الاستغناء بكثرة المال.

(٢) أعشب المكان : صار ذا عشب ، وأعشب الرجل صادف العشب وأعشو شبت الأرض كثر عشبها ، والمراد أنه عديم المال .

(٣) العذار : يطلق على الشعر النابت فى موضع العذار ، وإزدارك بمعنى زارك .

(٤) ماشرف من بخل .

(٥) لم يكمل ولم يبلغ الرشد من جمع المال ولم ينفقه .

(٦) لم يخف أن يعطى وينفق .

اتخذا الأدب شرعة ، والاقتباس منه نجعة ، فكنت أنقب عن أخباره وخزنة أسراره .

والاكثار من الجناس كقوله : النعم ، والنعم ، والحرم والحرم وتزجى وتزجى ، ويهب ، ويهب .

والطباق كقوله : اليأس والطمع ، والتأميل والقمع ، وتراب بعد الاتراب .

إلى جانب صور بيانية أخرى كقوله : « عدم الاعشاب » كناية عن الفقر والحاجة ، وقوله : ألفيت منهم بغية الملتمس كناية عن يؤخذ منه الأدب وقوله نفث قلبي كناية عن تعلمه مبادىء القراءة والكتابة .

وأيضاً في قوله « سعت قدمى » مجاز مرسل علاقته الجزئية ، والقرينة سعت .

كما تتجمل بالاقتباس من القرآن الكريم نحو « وكان فضل الله عليك عظيما » ونحو « أحسن كما أحسن الله إليك » ومن الحديث الشريف نحو « السفر قطعة من العذاب » .

وإذا كانت المقامة من بذور القصص في الأدب العربي فإنها — أيضا مصدر عظيم من مصادر تعليم اللغة العربية ، والتعرف على كنوزها ، لأنها — إلى جانب مااشتمل عليه من معان وأفكار ودواع وأغراض — تزود الانسان بالكثير من أساليب لغتنا الجميلة وتوقفه على أسرارها وتمده بالكثير من ألفاظها المألوفة والغريبة ، وحكمها وأمثالها الرشيدة .

كما أنها تعكس مالدى الأديب من سعة الاطلاع ، وغزارة المادة ، وقدرته الفائقة فى استخدام الألفاظ ، وتصريفها لمعان ينشدها ، وأهداف يرمى إليها :

والحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على خير من نطق بالضاد من ولد عدنان وعلى آله وصحبه أجمعين . ؟

فهرس